14 me Année No. 689

Lundi—16—9—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٩ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٠ شوال سنة ١٣٦٥ — ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

٥ — بقية من لغو الصيف :

مفـــارقات ... !

للأستاذ ســيد قطب

أيها القارئ ...

في « سوق الرقيق » على البلاج ، وبين هـذا الحشد من العرايا ، وفي غمار هذا اللحم الرخيص الذي يعرض في سوق الرقيق ، فيعبث به العابثون ، وتتدسس إليه النظرات المريضة ، دون أن يقدم على شرائه أحد إلا بثمن اللحم الرخيص !

في هـذا المكان ... على البلاج ، يقوم البوليس بجولات للمحافظة على الآداب !

أي والله ! لا تضحك ، ولا تدهش ، فعين الدولة ساهرة على الآداب ! ويد الدولة باطشة بمن يخدش الآداب ، وبما يخدش الآداب !

وإليك البيان :

« مايوهات » الرجال ثلاثة أنواع :

نوع بحمالة على العاتق ، ونوع بحزام ، ونوع برباط من المطاط ... وقد استفتيت الآداب فقالت : إنها ترتضي النوعين الأول والثاني ... أما النوع الثالث فلا ... وليس مرد هذا كله إلى فرق في حجم هذه الأنواع الثلاثة ولا شكلها ، ولا في أن واحداً منها ساتر أو كاشف ... لا ... لا ... فتلك شكليات لا تعني الآداب ! إنما السر كله في الحمالة أو الحزام أو الرباط !

ويمر الشرطي بالشاطئ . فأما من كان لباسه بحمالة أو حزام فذاك ، وأما من كان لباسه برباط ، فيسوقه إلى « النقطة » ما لم يتوسط في الأمر الوسطاء !

ذلك كل ما يعني الدولة هناك من حفظ الآداب ، وإن عين الدولة لساهرة ، وإن يدها لباطشة ... فحذار — أيها القارئ — أن تظن أن عين الدولة هناك غافلة عن رعاية الآداب ! ! !

* * *

ورعاية أخرى للآداب من تلك الرعايات في سوق العرايا على البلاج هذه الأجساد الرخيصة المكشوفة ، المتلاحمة في البحر وعلى الرمال ، المرمية في أوضاع حيوانية مريضة على مشهد من الأنظار ... هذا اللحم المكدس المتخلط من نساء ورجال في كل مكان ، حيث لا يثير في أي حس سليم إلا التقزز والاشمئزاز ، حتى في نفوس طلاب الجسد من ذوي الغرائز القوية السليمة !

هذا اللحم تفرق الدولة بينه في مكان واحد على البلاج : في الرشاش « الدش » فهو يتلاحم في البحر كما يشاء ، ويتكدس على الرمل كما يشاء ، ويتخلج ذهابا وإيابا على الشاطئ كما يشاء . ويرى الجميع الجميع في كل وضع وفي كل مكان ... إلا حيث يذهب هؤلاء وهؤلاء إلى الرشـاش . فهناك يكون الفصل والحجاب !

وهان ذلك لو أن كل رشاش منفصل مستور له باب — كما في « بلاج الارستقراط » — فهناك مظنة أن يخلع المستحم أو المستحمة لباس البحر؛ تلك البقية الضئيلة من الستر، ولكن رشاشات الرجال والنساء في معظم « بلاجات الشعب » مكشوفة كرشاشات السجون التي يشكو بعضهم من خدشها للآداب هناك! والفاصل بين هذه وتلك حائط في الوسط، وهذه وتلك مكشوفة من الجانب الآخر بنظر الرائحون والغادون فيرون من فيها تحت الرشاش!

وإن الأمر ليبدو « مسخرة » من المساخر. فما قيمة هذا الفصل بين الجنسين في لحظة الرشاش؟

وتسأل: ولمَ لا تكون هناك حمامات خاصة للسيدات، وحمامات خاصة للرجال؟ ولم لا يحرم لباس البحر على « البلاج » ولا يباح إلا في الماء وفي الحمامات الخاصة لهؤلاء وهؤلاء؟

تسأل إن واتتك الجرأة على السؤال. فهنالك مخنثون رقعاء في الصحف الداعرة وفي كل مكان ... هناك أولاد لا أعراض لهم في بيوتهم؛ يصيحون في وجهك كما تصيح الكلاب: هذا تأخر! هذه رجعية! هذا جمود!

ويقولون لك: في أوربا وفي أمريكا، وفي بلاد العالم المتحضر تختلط اللحوم وتتعرى الأجساد!

وفي الغابة كذلك — يا أولاد — تختلط اللحوم وتتعرى الأجساد!

ولكن الغابة أشرف وأسلم، لأن الفطرة هنالك أصدق وأنظف؛ فأنثى كثير من الحيوان والوحوش هناك لذكر واحد. وهي بذلك أعف وأشرف من تسعة وتسعين في المائة ممن تنشرون صورهن عارية على البلاج، أو شبه عارية في الحفلات الداعرة في أوساط « الأرستقراط ». ونفوس الذكران من الحيوان هنالك أرقى وأقوى من نفوس تسعة وتسعين في المائة من نفوس الرقعاء من مخنثي الصحافة والإذاعة والسينما والطرب في هذه الأيام!

***

ويقولون لك: الشعب هو الذي يقبل على المجلات الداعرة، وعلى الأفلام الفاجرة، وعلى الأغنيات المخنثة، وعلى كل ما يثير الغريزة في كل وضع من الأوضاع.

وينسون جريمتهم في انحلال الشعب، هم والذين يسمونهم كذباً « أرستقراط » ينسون أنهم هم الذين هتفوا لكل أنثى داعرة مريضة الغريزة شاذة التكوين خرجت إلى سوق الرقيق باسم « المودرن »! والمرأة خاصة يغريها الثناء وتغرها « المودة » ويغويها الإغراء. والرجال المخنثون الذين يشرفون على هذه المرأة لم يجدوا في عروقهم دماء الرجال!

وينسون أن في كل نفس بشرية غريزة، وأن ليس من وظيفة الصحافة والفنون أن تملق هذه الغريزة وتستثيرها، وتلح في استثارتها، فهي لا بد أن تستجيب!

وأن في كل نفس بشرية كذلك ميلا إلى الترفع عن قيود الضرورة، وأنها من هنا كذلك يمكن أن تقاد.

في كل نفس بشرية خيط للصعود وخيط للهبوط؛ ومن أي الخيطين يمكن أن تجذب فتستجيب. فإذا كان الرواج هو الذي يغري هؤلاء الهابطين بتملق الغريزة، فليجربوا الخيط الآخر فقد يؤدي كذلك إلى الرواج.

صحفيون ناجحون، ومطربون ناجحون، وممثلون ناجحون، لماذا؟ لأنهم يحترفون الدعارة والقوادة. لأنهم دعاة مواخير .. ولم يتعقب بوليس الآداب إذن مديري المواخير؟ ... إنهم صحفيون ناجحون، أو مطربون ناجحون، أو ممثلون ناجحون ... كلها « فركة كعب » بين هؤلاء وهؤلاء!

ما الفرق بين ذلك الصحفي الذي ينشر في صحيفته تلك الصور الداعرة على البلاج أو في حفلات « الأرستقراط » ليقودك إلى شراء صحيفته، وبين ذلك « القواد » الذي يعرض عليك الصور العارية خلسة على المقهى أو البار ليقودك إلى الماخور؟!

فرق ضئيل.

ولكن عين الدولة مع ذلك ساهرة، ويدها مع ذلك باطشة. وإذا شئت أن تتأكد، فلتذهب إلى البلاج، لترى كيف تفرق بين الجنسين في الرشاش!

***

سأل ولد رقيع من أولئك الذين يسمونهم صحفيين ناجحين، راقصة عدة أسئلة قذرة، فأجابته بما شاء، ليروج صحيفته بصور من الحياة الداخلية لواحدة من أولئك اللواتي لسن عذارى ولسن أمهات!

وكان في آخر أسئلته سؤال: ما رأيك في « بنات الذوات »:

وكان الجواب : هن اللواتى يعشن مثل حياتنا ، ثم يقال عنا : بنات الهوى ، ويقال عنهن : بنات الذوات !

رد بارع ، كدت والله أحترمها من أجله !

وهؤلاء هن اللواتى تستلهمهن الصحف الناجحة ، وتسميهن الطبقة الراقية ، وتقول : إنهن شرفن مصر فى المجتمعات .

ونشرت إحدى هذه الصحف مرة صورة نسوان من هؤلاء ، يركبن الخيل فى لباس الفرسان . وقالت : لقد آن لمصر أن تستقل وهؤلاء نساؤها يزاولن جميع الرياضات ، حتى رياضة الفروسية !

كأن لم يكن ينقص مصر لتستقل إلا بضع نسوان فارغات لاهيات من أولئك اللواتى يعشن حياة الراقصات ، فيقال عن هؤلاء : إنهن بنات الهوى . ويقال عن أولئك : إنهن بنات الذوات !

***

ومالى وهؤلاء « الأرستقراط » ؟ الأرستقراط المزيفين الذين ليس لهم من سمات الأرستقراطية إلا الثراء . الثراء الذى دفع بعضهم فيه — على توالى الأجيال المحدودة أعراضاً — ودفع بعضهم فيه خدمات لا يرضاها الشرفاء ، للاحتلال ولغير الاحتلال ؟

مالى ولهؤلاء ؟ إنهم لا يستحقون هذه الكلمات .

ولكن مشهداً فى « بلاج الأرستقراط » لا أنساه :

هبط إلى حرمهم المقدس — وإن لم تكن لهم حرمات — متسول عاجز ... لا أدرى كيف تسلل من عيون الشرط والحراس إلى تلك الأرض المحرمة التى لا تطؤها أقدام الشعب إلا بترخيص !

هبط إلى حيث أقامت الدولة سياجاً حول هؤلاء المقدسين ، فراراً بهم من الشعب الملعون !

هبط هذا المتسول العاجز القذر ، يسأل من هناك قوتاً وطعاماً ... لله ! ... المسكين يعرف أن الله فى كل مكان ! ! !

وإن هى إلا لحظة حتى توجهت إليه النظرات الشزر ، مصحوبة بالتأفف والتقزز والاشمئزاز . وسرعان ما تداولته أيدى الشرط والحراس ، فى حنق وغيظ : كيف جاز لهذا المنبوذ أن يطأ الأرض المحرمة التى لا تطؤها أقدام الشعب إلا بترخيص ؟ !

وبعد وساطة بعض الطيبين من حراس الشاطىء هناك رضى الشرطى أن يقذف به على « الكورنيش » ولا يقوده إلى (النقطة) وحسبه ما لقى من صفعات ...

وفى وسط هذه الظاهرة تبرز فى خفية وفى تلصص فتاة ... فتاة خادم رقيقة الحال ، تبرز لتتدسس خفية إلى الرجل المسكين وتدس فى يده شيئا وهى مذعورة . ثم تهمس فى حذر : « أدى قرش ساغ ياعمى . بس إدى لى منه تعريفه . أحسن والنبى عايزاه وما عندى غير القرش ده » !

وبحث الرجل فى جيوبه فوجد نصف القرش المطلوب . فكررت له الفتاة معذرتها فى طلب نصف القرش ، وأنا أسمع وأرى . ثم سارت تسرع الخطى ، هابطة إلى الأرض المحرمة . فهى من هناك !

وفجأة وجدت نفسى تضطرب ، فتسرع نحوها خطاى . وأمد يدى إليها بقرش قائلا : خذى يا بنية قرشك الذى أعطيته للشحاذ !

ونظرت إلى برهة ثم قالت : « لا ياعم . إديه للراجل الغلبان . أنا موش عايزاه . أنا عايزه الثواب من الله ! »

الله ! لقد صدق الرجل فى حدسه ! فالله موجود فى كل مكان حتى هنا فى « بلاج الأرستقراط » !!!

سيد قطب

مقالات في كلمات

للأستاذ علي الطنطاوي

يؤمنون بالحمار !

وليس هؤلاء الذين يؤمنون بالحمار من بقايا المشركين الأولين الذين يكفرون من جهلهم بالله رب العالمين ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت ، ولا الفراعنة الأقدمين عباد العجل ، ولا من إخوان البوذيين الذين يؤمنون بالبقرة ، ولكنهم قوم من المسلمين ، ومن كبار الأدباء الشاميين ، نظروا فرأوا للحمار مزايا وفضائل ليست لهذا الإنسان الذي يؤمن به أخي وصديقي الأستاذ عبدالنعم : فهو لا يكفر بالله ، ولا يجحد بلسانه الإله الذي خلق له هذا اللسان كما يفعل الإنسان ، ولا ينافق ويتخذ له وجهين ، ولا يثير الحروب على إخوانه في الحمارية ، ولا يعرف جريمة القتل ، ولا رذيلة الانتحار ، ولا تشغله شهوته عن واجبه الحماري كما تشغل بني آدم ، ولا يفكر في الأتان إلا مرة واحدة في السنة ليقوم بقسطه من فضيلة العمل على بقاء النوع ... ولا ينحرف بغريزته عن طريقها ف (يقترب ...) من حمار مثله ويدع جميلات الأتن ذوات الخد الأسيل والذنب الطويل والساق النحيل ... كما تنحرف غرائز بعض بني آدم . ولا تتبرج إناثه التبرج المغري ، ولا تعرف البغاء الرسمي في (المحلات العمومية) ولا البغاء الطليق على (البلاج) ، ولا البغاء الفني في السينما والمجلات المصورة ...

ولم يشاهدوا أتاناً ترقص رقصاً خليعاً ، أو تدخل فرقة (مرشدات) ولم يسمعوا حماراً يغني غناء مخنثاً ، أو ينظم شعراً رمزياً ، مع سهولته عليه ، وأنه لا يكلفه إلا أن ينهق نهيقاً من بحر جديد مبتكر ؛ ورأوه مع ذلك صابراً على ما قدر عليه ، راضياً بما قسم له ، لم يستغل هذه الحرب ليسرق شعير إخوانه ... لا يغش ولا يرتشي ولا يخون ولا يعرف المكر ولا الحسد ، ولا يتظاهر بالدين ليصل إلى الدنيا ، ولا يتخذ العمل في الجمعيات الإسلامية سلّماً إلى المناصب ؛ وهو بطيل التأمل ولكنه لا يؤذي أبناء جنسه بتدوين فلسفته ، ويأتي حين يصوت بسحَجات وصيحات لها في موسيقى الحمير جمال ؛ ولكنه لا يكذب فيدعي أنه من كبار الملحنين ؛ ويجيء بالبلاغة الحمارية المحدثة ، ولكنه لا يزعم أنه مجدد في البلاغة كما يزعم بعض مشايخ بني آدم ، لئلا يقال له : اخرس ، فما تجديدك هذا إلا نهيق !

رأوا ذلك فآمنوا بالحمار إيمان تقدير وتفضيل ، لا إيمان دين وعبادة ، فألفوا منذ ربع قرن (جمعية الحمير) ، وجعلوها سرية لأن الناس لم يستعدوا بعد لفهم هذه الأخلاق الحمارية ، وتقدير أهلها ، وكيف ولا يزال الواحد منهم إذا شتم آخر قال له من غروره وحماقته : يا حمار !

وقد خرج من هذه الجمعية رئيس وزارة ووزراء وخمسة من أعضاء المجمع العلمي العربي ، وكان يعطف عليها ملك عربي عظيم ويصغي مستمتعاً إلى حديثها . والانتساب إليها صعب ، لا بد فيه من ترشيح ثلاثة من الأعضاء ، وتقديم أطروحة في شرح مزية للحمار لم تعرف ، وبعد مناقشتها (علناً) يقبل الطالب ويسلم إلى أحد الأعضاء لتطبيعه على طبائع الحمير ، ثم يثبت عضواً أو يرد . ولأن يصير المرء وزيراً أو أستاذاً في الجامعة (بقانون خاص) أهون من أن يصير عضواً فيها

ولهم إشارة يتعارفون بها ، هي التي سرقها منهم تشرشل فعمت الأرض ، وهي الإشارة بالسبابة والوسطى إلى أذني الحمار ، لا إلى ال (فاء) من (فيكتوار) ! ولهم اصطلاحات في كلامهم خاصة بهم ، منها أنه إذا دعاهم كبير جاهل ممن يحب أن يجمل بالأدباء مجالسه ، قالوا : هلم نذهب إلى المعلف ...

وإذا وصفوا غناء عبد الوهاب (مثلا) قالوا : ما أجمل هذا النهيق ، وإذا رأوا على غني من أغنياء الحرب ثوباً جميلا ، قالوا : ما أحلى هذه البردعة ... وإذا شاهدوا داره ، قالوا : ما أفخم هذا الاصطبل . وللجمعية درجات رفعوا بعضها فوق بعض ، فأعلاها اليعافرة نسبة إلى يعفور حمار النبي صلى الله عليه وسلم ، فالسيارون نسبة إلى حمار أبي سيارة الذي أجاز عليه الحجاج من المزدلفة إلى

منى أربعين سنة ، وكان يشق الناس ويقول :

خلوا الطريق لأبي سياره
وعن مواليه بني فزاره
حتى يجيز ســالما حماره
مستقبل القبلة يدعو جاره
فقد أجار الله من أجاره

ولهم علم وأدب ، وهم يفضلون بشاراً على الشعراء لأنه توصل بحدة ذهنه ، وشدة ذكائه إلى التغزل بأتان على لسان حمار ، ويقدمون خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشي لأنهما كانا يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين ويدافعان عنها ، ويثنون على من ألف (خواطر حمار) ومن ترجمه ...

وحديثهم طويل ، فماذا يقول فيه الاستاذ عبد المنعم ؟ أيقول إنهم (حمير ...) ؟ !

أزمة القلوب في مصر :

أنا أحبكم والله يا أهل مصر ، تخذوها مني كلمة محب متألم لا كلمة عدو ناقم ، وإن مصر بلدي ومنها أصلي ، وفيها قلبي ؛ منحته أهلها ولم آخذ منهم شيئاً ، لأنهم لم تبق لهم قلوب يحبون بها ، قد ذهبت بها صبوات النفس ، ونزوات الصبا ، لقد أماتتها هذه المجلات الداعرة ، وهذه الأفلام الخليعة ، فأين الحب يحييها ؟ أين الحب في البلد الذي لا تمنع فيه ثمرات الجمال ؟ وهل يزكو الحب إلا على المنع ؟ وهل يعيش إلا على الأمل ؟ وهل يتغذى إلا بالألم ؟

وهل الحب إلا تطلع إلى المجهول ، وتشــوق إلى ما وراء (الحجاب) ؟ وهل أنطق الشعراء بآيات الغزل إلا ذاك ؟ وهل هذه الآلاف من السيقان الباديات على سيف الاسكندرية تبلغ كلها من نفس الشاعر كما تبلغ ومضة من بياض ساق ليلى ، لو بدت للمجنون وللعاقلين ... ساق ليلى ؟ فاذا لم تبالوا يا أهل البلاج ... بهذا الشيء الأثري الذي يسمونه الدين فاحرصوا على الفن . حافظوا على الحب ، فالحياة الحب والحب الحياة ... فماذا تكون حياتنا بغير عاطفة ولا حب ؟ وأين الشعراء يدافعون ، لا عن الفضيلة ، بل عن الحب الذي يحتضر على رمل الاسكندرية ، على حين ترقص عند سريره الشهوات المعربدة وتصيح .

لقد كنا نقرأ (روفائيل) و (الأجنحة المكسرة) فترفعنا إلى عالم في السماء ، عالم مسحور كله عاطفة وفتنة وطهر ، فنتخيل فتاته في أحلامنا تطير في جو من العفاف ملفوفة بالنور ، لا بل هو شيء فوق ذلك فما يبلغ قلمي الآن وصفه ، فماذا يرى من يقرؤها اليوم من الشباب ، إنهم لا يتخيلون إلا فتاة الترام أو غادة البلاج ، أو صبية السينما ، فيسرعون إليها ، فما تكون إلا دقيقة واحدة ، حتى يتصرم الحلم ، وتمحى الرؤيا ، فنهبط من السماء إلى أعماق الفراش الدنس ...

أعظم العظماء في تاريخنا :

أعظم العظماء في تاريخنا السياسي خمسة ، لست أنكر عظمة من عداهم ، ولا أبخسه حقه ، ولا أنزل به عن مكانته . وإني لأعلم أن في تاريخنا لعشرة آلاف بطل ، ما تملك أمة مائة من أمثالهم ، ولكن هؤلاء الخمسة معدن آخر ، ماصنع الله منه بشراً غيرهم إلا هؤلاء الخمسة ، فكانوا تحقيق المثل الأعلى الذي ينتهي إليه خيال الأديب ، وتأمل الفيلسوف ، وتصور الانسان حينما يتصور الملك الكامل ، والزعيم والحاكم ، خمسة أو توامن الذكاء أحده ، ومن الرأي أسده ، ومن الإخلاص أشده ، فان وزنت عظمتهم بسعة نفوسهم ، وجلال مواهبهم ، وقيمة أشخاصهم ، وجدتهم قد رجحوا في الميزان على كل عظيم من غير الأنبياء ، وإن قستها بآثارهم الباقية ، وما صنعوا لهذه الأمة من مجد ، وما خلفوا فيها من تراث عقلي أو وطني أو خلقي ، ألفيتهم السابقين المبرزين ، وإن رأيت ما أفادوا من خدماتهم ، وما انتفعوا به من سلطانهم ، وما كان لنفوسهم من حظ من ملكهم ، وجدتهم عاشوا جميعاً مثلما يعيش رجل من غمار الناس ، ما استأثروا بطيب من الطعام ولا لين من اللباس ، ولا أورثوا فضة ولا ذهباً ، ولا استفاد أبناؤهم منهم مالا ولا نشباً ، وإن عرضت بعد ذلك سيرهم عرض ناقد متعقب ، أو نظرت إليها نظر عدو شانىء ، لم تستطع أن

في ركب الوحدة العربية :

الأدب في فلسطين . . .

للأستاذ محمد سليم الرشدان

— ٣ —

النثر في شتى ألوانه :

في فصل مضى (من هذا البحث) ، وقفت عند ثلاثة من الأدباء ، كل منهم يثبت عند حد رسالته ولا يبرحه حتى يعود إليه . وهم يجمعون في هذه الرسالات بين الأدب والتربية والتوجيه . وكلها حين تجتمع وتتسامت مع غيرها (من الألوان) ، تتألف منها صورة صادقة من صور الأدب الصحيح .

وفي هذا الفصل أتناول ثلاثة آخرين يختلفون في مناحي رسالاتهم (أيضاً) . ولكن هذا الاختلاف (في رأيي) لا يعدو كونه من المتممات التي يشتمل عليها الأدب في شتى ألوانه كما أسلفت . وهؤلاء الثلاثة هم : (باحث سياسي خطيب) و (مؤرخ يصور دقائق المجتمع الذي يعيش فيه) و (عالم يبسط العلم في ثوب الأدب) .

فأما الباحث الخطيب — والخطباء ذوو الآثار عندنا قليل — فهو الأستاذ عجاج نويهض ولعلي لا أغالي إذا قلت : إنه (سحبان) هذا الجيل . فقد عرفه الناس خطيباً مدرهاً ، ولسناً مفوهاً . وهو إذا ما صعد منبراً تدفق تدفق الأتي (مرتجلاً مبتدعاً) ، وحلق إلى رفيع الأجواء ، مجتذباً معه القلوب والأسماع . فهو — من غير ما جدال — فارس هذه الحلبة وابن بجدتها ، ومجلي هذا الميدان وصاحب قصبه .

وهو — إلى جانب ذلك — أديب مطبوع وكاتب سياسي لامع . وقد زامل النهضة العربية منذ شبابها ، وكانت تربطه أواصر مودة مع كثيرين من أقطابها . فطالع الناس بمجلته (العرب) أدبية سياسية ، رغبة منه في أن يساهم في بناء هذه النهضة مساهمة فعلية بقلمه وتوجيهه . فكانت — على قصر حياتها — منبر دعاة الحركة الفكرية الاستقلالية في العالمين العربي والإسلامي . واستمر ذلك من عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٣٤ ، حين تعرم (المستعمر) فكم الأفواه ، وأخرس الألسن ، وبدأ — من بعد — يصنع الأعاجيب ! !

وكان الأستاذ — قبل ذلك — لا يبرح هذا الميدان في مجلات مصر وصحف الشام ، ولعله كان أبرزها يومذاك (فتى العرب [1]) في دمشق ، و (كوكب الشرق) و (مجلة الفتح) المصريتين ، وللأستاذ فيهما من بديع الآثار ما ينتظم هالة جهاد وفخار .

وقد جمع له الأستاذ (محب الدين الخطيب) في كتابه (المنتقى) بعض محاضراته القيمة . وإنك لتشهد إنها (قيمة) — لو قرأت أو سمعت — وليس الخبر كالعيان ... وللأستاذ — عدا محاضراته وأبحاثه — كتب غزيرة النفع جليلة الأثر ، بين مترجم وموضوع ، أذكر منها : « حاضر العالم الإسلامي » وهو كتاب وضعه أحد العلماء الأمريكان بعد الحرب الأولى وصف فيه نهضة العالم الإسلامي (السياسية والاجتماعية) ، وقد عربه الأستاذ (نويهض) لما رأى من أهميته ، وعلق عليه الأمير (شكيب أرسلان) تعليقات مستفيضة جامعة . وقد صدرت طبعته الثانية في أربعة

(١) صاحب هذه الجريدة أديب الشام الأستاذ (معروف الأرناؤوط) وقد تتلمذت عليه — إبان حداثتي — في كتابه (سيد قريش) ، وعرفته (سنة المرض) في دمشق . فلمست فيه رزانة الحكماء ، وتواضع العلماء . وآثاره كثيرة قيمة ، وأسلوبه عبقري فذ . ولكن معظم من لقيت من أدباء مصر ، لا يعرفون عنه شيئاً ! !

تجد فيها عيباً ؛ فلا أخطأوا في سياسة ، ولا تعمدوا مظلمة ، ولا حجزوا حرية الرأي ، ولا أساءوا لمسلم ولا ذمي ، ولا حنثوا مع محارب بقسم ، ولا نقضوا عهداً ، وكانوا مظفرين في الخارج في الحروب ، مظفرين في الداخل بالسياسة ...

أولئك هم : أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، ونور الدين زنكي ، وصلاح الدين .

(دمشق) **علي الطنطاوي**

أجزاء . وهو إلى أن يكون موسوعة إسلامية ، أقرب منه إلى أن يكون كتاباً مقصور الأبواب .

ثم كتاب (النظام السياسي) : وهو كتاب يبحث تطورات الأنظمة السياسية في المجتمع منذ أقدم عصورها إلى اليوم .

وله أيضاً كتاب (سيرة الأمير جمال الدين — عبد الله التنوخي) أحد أعلام لبنان في القرن التاسع عشر .

وأما أسلوبه : فهو أسلوب يتحرر من كل قيد ويسترسل وراء المعاني ، ويراعي فيه أن يتحسس مواطن التأثير في نفس القارئ أو السامع فيستدرجها إلى اليقظة ، ثم يدفعها بعد ذلك حيث يشاء . وإليك ما يقوله في كلمة عنوانها (الاستقلال العربي) :

« الاستقلال : شق طريقه الشهداء الأبرار ، فسكنت أجسامهم الأرضين ، وأرواحهم الطاهرة أعلى عليين . عُلّقوا على الأعواد ، وجالدوا المستعمر أبسل جلاد . فاستشهدوا بين شمال الحجاز وبطاح العراق ، وتطيّب ثرى ميسلون وأرض فلسطين وسهول حوران بطيب أجلادهم وعظامهم .

نعم : الاستقلال العربي ! الذي لذكراه تهتاج النفوس العربية في كل مكان ، وتهفوا قلوبهم إليه ، وتحنوا ضلوعهم عليه . الأمة العربية قد استيقظت ، فليشهد العالم ! ولن ينكص العرب عن هذا السبيل حتى يستردوا حقهم المغصوب ، ويستعيدوا ملكهم المسلوب . ويملكوا بيدهم زمام أمرهم وبلادهم خالصة لهم .

وأمم كثيرة قبلنا كانت متفرقة مقهورة ، فكتب الله لها أن تجتمع حزمتها ثانية ، وأن تعز بعد ذل ، وتعلو بعد هبوط . ولكن كانت (التضحية) هي القائد ، وكان (الفدى) هو الدليل . »

وأما المؤرخ (الذي يصور دقائق مجتمعه الذي يعيش فيه) فهو الأستاذ عارف العارف — وقد بدأ حياته الأدبية ، يوم كان أسيراً في (سيبريا) أثناء الحرب الكونية الأولى . إذ أصدر هناك جريدة أسماها (ناقة الله) كان يحررها بنفسه . وقد اطلعت على بعض أعدادها التي ما زال يحتفظ بها فألفيتها غاية في الطرافة .

ثم ألف كتاباً عنوانه (رؤياي) أثناء عودته (فاراً) من منفاه ، عن طريق الصين فالهند ، استجابة لداعي الثورة العربية الكبرى ، بعد أن أضرم نارها يومذاك المجاهد الأكبر (الحسين ابن علي) ، الذي قضى شهيد تلك الدعوة المباركة ، ليرقد بعيداً عن مسقط رأسه عند مهوى الأفئدة ، ومؤتم القلوب والأبصار ، عند المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله . وكذلك قضى (الأخيار المصطفون) من أبنائه (عليّ وفيصل وغازى) ، وإنك — كائناً من كنت لتعلم من (أولئك) ! !

ولقد ضمن الأستاذ (العارف) كتابه (رؤياي) ما كان يساور خاطره الفتي — إذ ذاك — من أحلام ذهبية مشرقة ، وآمال باسمات عذاب . وحسبك من ذلك أن تعلم نبوءته بـ (الجامعة العربية) . ولم تكن هنالك للعرب دولة . بل لم تكن قامت لهم — بعد — قائمة . فأبصرها — فيما أبصر — ينتظم عقدها من كافة أقطار العروبة ، بما في ذلك : عمان والبحرين وحضرموت وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش . كما أبصر لهذه الجامعة هيئة تنفيذية أسماها (اللجنة العربية العليا) ، وهي تقوم على إمضاء ما تقرره تلك الجامعة مما فيه صالح العرب قاطبة ، يعززها جيش لجب مدرب ، وأساطيل كثيفة ، تمخر عباب الماء ، وتغمر أعنان السماء ...

ويمضي في (رؤياه) على هذه الوتيرة ، يعدد ما يشاهده من مفاخر هذه الأمة ، ويستعرض ما تكون قد وصلت إليه في ميادين التقدم والرفعة والمجد . فرجو الله أن يحقق تلك الرؤيا كاملة غير منقوصة ، بعد أن تحقق جانب منها . وما ذلك على الله بعزيز .

وللأستاذ (العارف) كتاب (القضاء بين البدو) وهو أول كتاب من نوعه ، ترجم إلى عدة لغات ، وفيه تصوير بارع لحياة البادية وتقاليدها وعاداتها ونظمها ، وما يتقيد به البدوي في أفراحه وأتراحه وسلمه وحربه : ثم يشرح بعد ذلك الكثير من أقوالهم وحكمهم وشعرهم ، وما يسير بينهم مسير الأمثال .

وله أيضاً (تاريخ بئر السبع) و (تاريخ غزة) و (تاريخ عسقلان) وجميعها مطبوع . ثم (تاريخ بيت المقدس) وهو تاريخ ضخم ما يزال إلى اليوم مخطوطاً . وفي سائر هذه الكتب يؤرخ لتلك المدن منذ أقدم الأزمنة إلى يوم الناس هذا ، تأريخاً جامعاً شاملاً ، لا تفوته فيه سانحة ولا بارحة .

وإليك مثلا مما يكتبه ، وهو جزء من كلمة يقدم بها كتابه (تاريخ غزة) فيقول :

« الوحدة العربية : تلك هي أمنيتي التي أحملها بين أضلعي ،

وسرت على هداها فى أعمالى ، منذ تعلمت وعرفت معنى (حب الوطن) . وإنه ليسرنى أن أرى هذه الأمنية التى كانت تعد فى يوم من الأيام ضرباً من الخيال ، أو حلماً من الأحلام ، أخذت فى هذه الأيام تطل من وراء سحاب .

« وإنى لا أشك قط فى أنها ستصبح عما قليل حقيقة واقعة لا ريب فيها . وإن غداً لناظره قريب ... وإنا إذا سرنا بقدم ثابتة إلى الأمام ، اهتدينا إلى ضالتنا المنشودة فى أقصر ما يكون من الوقت ، وإلا فإن دون الوصول إليها خرط القتاد ... »

وأما العالم الذى (يبسط العلم فى ثوب الأدب) فهو الأستاذ قدرى حافظ طوقان ، عالم فلسطين الرياضى ، وليس عندنا من يضارعه فى هذا الميدان . وبالرغم من عمله الذى يستنزف معظم فراغه (فى إدارة كلية النجاح بنابلس) ، فإنه أكثر من عندنا تأليفاً ، وأوفرهم إنتاجاً . فبينا تراه يتفرغ لتأليف كتاب من كتبه ، تسمعه (أو تقرأ عنه) يحاضر فى مختلف أنحاء فلسطين ، وفى مواضيع علمية وأدبية وفلسفية وسياسية (أحياناً) . وإنك لو تتبعته فى جولاته الكثيرة بين يافا وعكا والناصرة وحيفا وغزة بل وبئر السبع ، لحسبته من (أهل الخطوة) الذين يتحدث عنهم جماعة (الصوفية) ، وهو لهم — أى للصوفية — صديق وفى . ويشهد لى بذلك من سمعه فى (نادى الناصرة) ، وهو يجادلنى جدالاً عنيفاً فى إحدى مشاكلهم المعقدة .

وكتبه بين مطبوع ومخطوط رهن الترتيب والإعداد كثيرة . أذكر منها الكتب التالية : (الكون العجيب) وهو العدد الحادى عشر من سلسلة (اقرأ) . ثم كتابه (نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية) أصدره المقتطف عام ١٩٣٦ وقد اشترك فى إعداده مؤلفون آخرون ليكون هدية لقرائه . ثم كتابه (تراث العرب العلمى) وقد أصدره المقتطف أيضاً عام ١٩٤١ هدية إلى قرائه كذلك . ثم كتابه الجديد (بين العلم والأدب) وهو مجموعة مقالات ومحاضرات وإذاعات علمية وأدبية . ومن كتبه المخطوطة (الأسلوب العلمى عند العرب) وقد ألقى جانب منه فى سلسلة محاضرات (ابن الهيثم) التذكارية فى الجامعة المصرية . ثم كتابه (العقل فى الإسلام) وفيه تحليل ومحاكة واستقراء لكثير مما وصلت إليه الأبحاث الفلسفية فى ظلال الدول العربية الإسلامية على أيدى فلاسفة المسلمين .

وأما أسلوبه فهو لا يخرج عن حد قوله فى كتابه الأخير حين يتحدث عن (الصفر) فيقول : « قد يدهش القارىء إذا قلنا إن حساب التمام والتفاضل لا يستغنى فى بحوثه عن استعمال الصفر ، بل إن الصفر عامل مهم جداً فى تسهيل حل كثير من مسائله العويصة . وعلى كل حال يمكن القول بأن (الصفر) ضرورى ولازم فى البحوث الرياضية الحديثة والعالية . إذ جعل كثيراً من الأوضاع والمعادلات قابلة للحل غير ملتوية المسالك » .

(له تكملة) **محمد سليم الرشدان**

(ماجستير فى الآداب واللغات السامية)

صورة :

الذى له صومعة ...

للأستاذ راشد رستم

هذا هو صباح المادى فى الصيف : خضرة وسكون وطير . ولست أقصد إلى المقارنة ، فالأسكندرية اليوم ، رمل وبحر « وسمك » ... كلاهما جميل ، وكلاهما وفقاً للمزاج يختلفان . وحبذا فى هذه الحياة مزاج الوفاق وتوافق المزاج .

وإنى إذ أجلس وحيداً فى هذا الصباح الهادىء اللطيف ، أذكر صاحبى هناك والدنيا حوله تفور وتصخب ، وهو هو كما أعهده قابعاً فى صومعته مفكراً راضياً ساخراً ...

وإنها للذة أن يقنع المرء نفسه بصومعة ينطوى عليها وتنطوى عليه ، فهى فى الحق نظرية عملية ، إذا استطاعها امرؤ فبشره بالفوز العظيم فى معترك الجهاد الأكبر ، إذ هى وحقيقة الحياة تسيران جنباً إلى جنب ، والمرء فيها كالقطرة فى النهر ، لها وحدتها ، ولكنها تجرى وماء النهر من المنبع إلى المصب ...

* * *

وهذا الذى يرونه فيلسوفاً ساخراً ، ما هو إلا روح هادىء قانع قابع ، لا قانط ولا ساخط ، قد عرف الأشياء وعرفته ، وجرب الحوادث وجربته ، وسار مع الأيام وسيرته ، ثم ارتفع بروحه إلى سموات التأمل والتفكير ، مصطحباً الحس والشعور ، حتى لا يضيع بين الوهم والغرور ، وقد طوف فى تلك الأرجاء مع القديم من الأحياء والجديد من الآراء ، ثم عاد وفى نفسه أن ينظر ويرى .

فماذا يرى ؟ — يرى أن يحتفظ بذاته ، منفرداً غير وحيد ، مبتعداً غير بعيد ، فتحول بينه وبين ما يريد « جاذبية » الأم الحنون — هذه الأرض التى خلق منها ، ولا أقول خلق « فيها » فقد يخلق الشىء من شىء ويوضع فى شىء ، فلا يستطيع البقاء مع الشىء الذى وضع فيه ، ويرتد إلى الشىء الذى خلق منه . وقد يكون المرء فى هذا غير فاهم ما يحصل له ، وهو إذن فى جهل ونعيم . وقد يكون فاهماً ما يحصل له ، وهو إذن فى علم وشقاء ...

* * *

وهذا آدم أبو البشر بل رمز البشر ، وقعت له الوقعتين ، فجهل الأولى وعرف الثانية . عرف أنه من التراب وإلى التراب يعود . ومن ينبه الذى يدرك ما هو فيه ، هو المعذب فى الحياة ، يقاسيها لأنه يعلم إنه لا مفر له منها . ويعانيها لأنها تعنيه ...

إذن ماذا يستطيع هذا أن يفعل غير أن ينفر ويسخر ثم يقنع ويقبع . يعيش مع نفسه وفى نفسه وإن لم يكن لنفسه ، يرجو أن يعيش وفق خطته وهواه ، وأن لا يزاحمه أحد فى « دنياه » ، وهو بعد ليس بالأنانى ، يحب نفسه ويكره سواه ، ولكنه الإنسان ، يمنع الشر عن أى أحد ، ويتمنى الخير لكل أحد ، ويرجو ألا يصيبه الشر من أحد ، حتى ولو لم ينله الخير من أحد ... هذا تفكيره ، فهل هكذا مسيره ؟

* * *

يعيش هكذا فى « دنياه » ، معتزاً بروحه ورضاه ، معتزلا غير منعزل ، لا يهمل ، كما لا يحفل برأى الناس فيه ، ولا يعنى بما ليس يعنيه ...

غير أن الأيام وقد ظن أنها كفلته وأمنته تأتى فتمرضه وتشفيه ، فيعلم مداه من اليأس والبأس والناس ، فيأنس دون أن يبتئس أو ييأس .

ثم تعود فتفقده عزيزاً غالياً ، فينتبه من تيه ، ويرى شيئاً لم يكن يرتئيه ، يحس بأن المصير ، هو غير ما كان عليه التفكير ، ويأخذه الذهول ، وكأنه يرضيه أو أنه قد يشفيه مما صار فيه ، ولكنه يحس دبيب الأسى يوقظه ، ويحركه ويدفعه ، فيمشى يتلمس فى الوجود ، الموجود والمفقود ، لا والد ولا مولود ، يفتقد صاحبه فلا يجده ، ويذكر هواه ولا ينساه ، ويهفو ولا يلهو ، فيراه الناس كئيباً حزيناً ، ثم يراهم يحسبونه مثلهم — ساعة وكل شىء يزول ...

ساعة وكل شىء يزول ! فيعجب ثم يضطرب بل ينتفض ويرتعد ويبتعد قليلا ... ثم يعود ، فلا يراه أحد كئيباً حزيناً ، فقد خجل أن يكون مثلهم ، وهو ... هو الكئيب الحزين ... دخل الصومعة ولكنه يسير بها فى المعمعة ...

راشد رستم

الشريعة الإســـــلامية

وأعلام القانون في هذا العصر

للاستاذ حسن أحمد الخطيب

عنيت طائفة من علماء الغرب ومحبي البحث بآثار المشارقة وعلومهم وفنونهم ، فكان منهم الباحث في اللغة العربية خاصة ، واللغات الشرقية عامة : يبحث في أصولها ومشتقاتها وتطور ألفاظها وكلماتها ، ومنهم المطلع على آدابها والمعنى بطبع أهم الكتب العربية والأدبية ونشرها بعد تصحيحها وضبطها وتعليق الحواشي بما يعين على الفهم ويفتح المستغلق .

ومنهم من تعدى ذلك ، فبحث في العلوم الشرعية من علوم القرآن والتفسير والحديث . ومنهم من نظر في الفقه الإسلامي ، فاطلع على دقائقه وغاص في بحره ، وعلم أن فيه ثروة واسعة وكنوزا نفيسة ، فنوه بشأنه وشاد بذكره ، ولفت أعلام القانون في وطنه إلى هـذه الثروة القانونية فأعجبوا بها ، وأقروا بقوتها ومبلغ أثرها في الحضارة والإصلاح .

وإلى هؤلاء تجد عنقاً[1] من أقطاب القانون في مصر وغيرها من الأقطار الشرقية — قد عرفوا آراءها وخصبها والحياة القوية الكامنة فيها ، فدعوا إلى النهل منها واتخاذها أساساً يرجع إليه في التشريع في مصر وغيرها من البلاد العربية والشرقية .

وإنا لذاكرون هنا آراء بعض أئمة العلم والقانون — في الشريعة الإسلامية من أولئك المنصفين من غربيين وشرقيين لتعرف أن الحق لا يعدم نصيراً ، وإنه يجب اتخاذ تلك الشريعة أساساً ومصدراً لتشريعنا في هذا العصر :

١ — يرى الأستاذ لامبير[2] الفرنسي : أن الكتب والمؤلفات الموضوعة في الشريعة الإسلامية كنز لا يفنى ، ومنبع لا ينضب ، وإنه خير ما يلجأ إليه المصريون في العصر الحاضر في البحوث العلمية حتى يعيدوا لمصر ولبلاد العرب هذا المجد العلمي الذي أخذ الزمن يطويه بحكم الإهمال وعدم العناية به .

وكان يظن أن للقانون الروماني أثراً كبيراً في الشريعة الإسلامية ولكن استبان له بعد أن عمق النظر فيها ، وأوغل في دراستها ، واتصل بعلمائها أنها شريعة مستقلة بذاتها .

٢ — وقال « ليفي أولمان » الأستاذ بكلية الحقوق بباريس في رسالة الدكتور محمد صادق فهمي التي ألفها في الإثبات باللغة الفرنسية ، وعرض فيها لما قرره علماء الشريعة الإسلامية وبخاصة ابن قيم الجوزية :

« إن كتاب الدكتور صادق جدير بأن يلحق بالكتب المكونة للمجموعات العلمية القانونية الحاضرة كمجموعة سالى وغيره من رؤوس القانون في عصر النهضة القانونية الحاضرة ، كل ذلك على اعتبار الشريعة الإسلامية في المعاملات مصدراً حياً للقانون المصري ، ومناطاً للحق في أطواره المختلفة .

٣ — وقال الدكتور « أنريكو انساباتو » : إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوربية ، بل هي التي تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً .

٤ — وقال بعض الفقهاء : الشريعة الإسلامية بحر لا ساحل له

٥ — وقال فارس بك الخوري في حفل أقيم في دمشق لإحياء ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم :

إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بمثله . والدين الذي جاء به أو في الأديان وأتمها وأكملها ، وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذي دعا الناس إليها باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

إن محمداً الذي تحتفلون به ، وتكرمون ذكراه أعظم عظماء الأرض سابقهم ولا حقهم : فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تمد من أرقى دساتير العالم وأكملها .

(١) جماعة .

(٢) أستاذ القانون المقارن بليون بفرنسا .

٦ — وقال العلامة سنتيلانا فى بعض مؤلفاته :

« إن فى الفقه الإسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى إن لم نقل إن فيه ما يكفى الإنسانية كلها » .

٧ — وقال الأستاذ سليم باز المسيحى اللبنانى شارح مجلة الأحكام المدلية :

« إننى أعتقد بكل اطمئنان أن فى الفقه الإسلامى كل حاجة البشر من عقود ومعاملات وأقضية والتزامات ، وليس الشاهد على ذلك ما هو ماثل للأنظار فى دار الكتب المصرية وخزائن الكتب فى البلاد الإسلامية فحسب ، بل فيما حوته خزائن دور الكتب الأوربية أيضاً من ليدن فى هولندا إلى روما وبرلين وباريس والمتحف البريطانى ، بل إلى المكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان ، فإن مافى هذه المكتبات من الكتب الفقهية الإسلامية إنما هو ثمرة جهود الألوف الكثيرة من فحول العلماء، وهى الشاهد الأكبر على أنه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل ، ولا حاجة من حاجات البشر فى التشريع إلا تقدم لفقيه مسلم قول فيه .

٨ — وقال كيهلر العالم القانونى الألمانى — حينما اطلع على رسالة الدكتور محمود فتحى فى مذهب الاعتساف فى استعمال الحق عند فقهاء الإسلام :

« إن الألمان كانوا يتيهون عجباً على غيرهم فى ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها فى القانون المدنى الألمانى الذى وضع سنة ١٧٨٧ م ، أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامى ، وأبان أن رجال الفقه الإسلامى تكلموا عنه طويلا ابتداء من القرن الثامن الميلادى — فإنه يجدر بالعلم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية .

٩ — وقال العلامة الأستاذ شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة فينا فى مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧ م :

« إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها ، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة » .

١٠ — وقال هوكنج الأمريكى أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد فى كتابه « روح السياسة العالمية » :

« إنى أشعر بأنى على حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوى على جميع المبادئ اللازمة للنهوض » .

١١ — وقال الدكتور عبد الرزاق السنهورى عميد كلية الحقوق المصرية السابق من محاضرة له :

«علينا أن نأخذ فى دراسة الشريعة الإسلامية طبقاً للأساليب الحديثة ، وأن نقارن بينها وبين شرائع الغرب ، وإنى زعيم لكم بأن تجدوا فى ذخائر الشريعة الإسلامية من المبادئ والنظريات ما لا يقل فى رقى الصياغة وفى إحكام الصنعة عن أحدث المبادئ والنظريات وأكثرها تقدماً فى الفقه الغربى » .

١٢ — وقال الدكتور عبد السلام ذهنى المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وهو القانونى المتضلع ، والرجل المنصف الذى عرف للشريعة الإسلامية قدرها ، وبذل غاية وكده فى إنصافها :

« إن بحوث أهل الشريعة الإسلامية فى المعاملات مستفيضة بكثرة لا حد لها ، وفيها كنوز قيمة من البحوث العلمية والعملية فى المعاملات؛ هى أكبر تراث تركه الآباء فى البلاد الناطقة بالضاد»

وقال فى موضع آخر :

« إن الشريعة الإسلامية مليئة فيما يتعلق بالمعاملات بأصول مدنية غاية فى الدقة والمتانة ... ولأحكامها فى المعاملات من القدرة والقوة والتفوق ما يجعلها بحق فى مستوى واحد مع القوانين المدنية العصرية من حيث الدعائم الأولى لعلم القانون ، ولعلم القانون المقارن ... إلى أن قال :

«وفى الأخذ بالشريعة الإسلامية فى المعاملات المدنية تمكين للنزعة القومية فى مصر ، وانتصار للكيان الشرق العربى وكرامته ، وفيه إحياء لمجد مدفون بغير حق ، وبعث لحياة شرقية عربية جديدة بحق »

١٣ — وقال الأستاذ على بدوى المحامى وعميد كلية الحقوق

مراكش
بين الحاضر والمستقبل
للأستاذ عبد المجيد بن جلون

لم يكن الفرنسيون يقدرون تمام التقدير الحركة الوطنية فى مراكش قبل الحرب الأخيرة. كانوا ينظرون إليها على أنها أحلام مزخرفة تتراءى لجماعة من الشبان بعيدة كل البعد عن الوقائع والمحسوسات؛ وكانوا يقولون إن هناك هوة سحيقة بين هذه الجماعة من الشبان وبين بقية الشعب، ولذلك ظلت الحركة الوطنية فى جزر ومد إلى أن كانت سنة ١٩٣٧ حينما اغتالت السلطة الفرنسية هذه الحركة وشردت زعماءها فى المنافى والسجون.

ولكن الحركة الوطنية فى مراكش كانت قد آتت ثمارها فى نفوس الشعب قبل هذا التاريخ، ولذلك فإن مظهر الشلل الذى أصابها بعد ذلك لم يكن له أى اتصال بالجوهر والصميم. كان من العوارض التى تنزل بالأمم عند ما تصاب بالنكبات القاصمة، فتذهلها فترة من الزمن عن إيمانها، ولكنها لا تخنق فيها نبض الحياة متى كان للحياة نبض فى أعماقها. حتى إذا استأنس الشعب بالنكبة وألفها، بدأ إيمانه يستيقظ فى شكل همس ثم فى شكل صوت ثم فى شكل جلجلة مدوية.

وهذا ما حدث فى مراكش بالضبط: تظاهر ضدها الموت والجوع والحرب والاضطهاد، وبالرغم من ذلك استطاعت أن تواصل كفاحها السياسى، وأن تتقبل كل التهم التى وجهت إليها كما تتقبل العذراء البريئة تهم الافك والبهتان. بل استطاعت فى خلال الحرب ذاتها أن تخوض فى صمت وجلد، وهى بعيدة كل البعد عن الضمير العالمى، معركة استقلالية دامية، وجه الفرنسيون خلالها نحو قلب هذه البلاد الباسلة كل ما يملكون من حديد ونار، دون أن يستطيعوا إخماد النبض فيه. وإذن فالمسألة ليست مسألة شبيبة حالمة، وإنما هى مسألة نظام بال تقادم عليه الدهر وتزعزع. إنها الأخطاء الفرنسية بدأت تؤتى ثمارها الكريهة المسمومة. إنه الشعور بالذات فى أمة لم تصمم على الاستمساك بالحياة فحسب، بل صممت أيضاً على أن تعيش حياة حرة كريمة تختلف كل الاختلاف عن الحياة التى عرفتها منذ ثلث قرن مضى فى ظل الحماية الفرنسية.

السابق من مقال له عنوانه: « مكانة الشريعة الإسلامية فى الفقه الحديث ».

« ليست مظاهر استقلال الفقه الإسلامى وتفوقه محصورة فى القواعد المدنية والأحوال الشخصية... ولكنها تبينت كذلك فى عدة مواضع من التشريع الجنائى الإسلامى » ... ثم قال:

« إن الشريعة الإسلامية تشمل من مبادئ العقوبة ونظمها ما لا يقل فى سعة النطاق وفى تهذيب الفكرة عن أحدث المبادئ والنظم الوضعية، ومنها ما لم يكن له مثيل فى نظم العقوبات الرومانية، ومن هذه النظم نظام الحسبة فى الشريعة الإسلامية، وهى وظيفة اجتماعية فى العصر القديم تقابل وظيفة النيابة العمومية فى العصر الحديث. ومنها كذلك نظام العقاب بالتعزير، وهو أن يترك تحديد العقوبة — نوعاً ومقداراً — إلى تقدير القاضى يحكم بها تبعاً لما يتضح لديه من ظروف كل جريمة، ولحالة المجرم ونفسيته ودرجة ميله إلى الإجرام، وهو نظام تمتاز به الشريعة الإسلامية على الشرائع الأخرى، وينادى به كبار العلماء الجنائيين فى العصر الحديث، حتى تكون العقوبات محققة للغاية من تشريعها ».

١٤ — ثم جاء قرار المؤتمر الدولى للقانون المقارن الذى انعقد بلاهاى فى أوائل أغسطس سنة ١٩٣٧ م — مظهراً فضل هذه الشريعة ورسوخ قدمها وعلو كعبها، وهو الذى جمع أقطاب القانون وأعلام الشرائع فى العصر الحاضر — وخلاصته أن الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة، وأنها لذلك جديرة بأن تشغل مكانة ممتازة بين مصادر القانون المقارن ».

وبذلك أحرزت الشريعة الإسلامية قصب السبق، وفازت فوزاً عظيماً، واعترف بمجدها الخالد الغربيون.

حسين أحمد الخطيب

ظلت فرنسا طيلة مدة الحرب تقريباً مهددة فى كيانها ، فشككها ذلك فى تلك السياسة العتيقة التى كانت تسير عليها فى الشمال الأفريقى ، وظهر لأول مرة فى الأحزاب الفرنسية من ينادى بما يسمى تارة إعطاء الحقوق أو عدم الاضطهاد أو المساواة بين سكان جميع الأراضى الخاضعة أو التابعة لفرنسا . وبدأت تظهر نتائج هذه الأفكار بالنسبة لمراكش ، فاطلق سراح الزعماء الذين قلنا عنهم فيما مضى إن فرنسا اغتالت الحركة التى كانوا قائمين بها سنة ١٩٣٧ ، وعلى رأسهم الأستاذ محمد علال الفاسى بطل حوادث تلك السنة . وظهرت كذلك فى الوسط الحكومى أفكار نيرة كانت تعد إلحادا قبل الحرب الأخيرة ، فبدأ الناس يقرأون فى البلاغات الرسمية ويسمعون فى الدوائر الحكومية عن حقوق الشعب والرخاء العام ، والعمل للمستقبل ، ومحاربة الجهل والفقر والجوع ... الخ . وهذا شىء جديد بالنسبة لما قبل الحرب فى مراكش

وهكذا اعتقد الناس أن الطريق نحو المستقبل قد بدأ يلوح أمام هذه الأمة التى ضلت تلك الطريق منذ زمن ليس بالقصير . بيد أنه يظهر أن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يتخلصوا نهائيا من تلك الأفكار العتيقة التى كانوا يسوسون امبراطوريتهم على ضوئها . وبالرغم من أنه لم تمر سوى بضعة شهور على هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الفرنسية فقد بدأ يظهر فى أفقها نوع من التردد الواضح ، وما يدل على أن الفرنسيين لا يزالون بعيدين عن الإيمان العميق بتلك الأفكار الجديدة التى دفعتهم إليها الحرب الأخيرة .

ومصدر هذا التردد هو أن الفرنسيين اعتقدوا أن سياسة اللين أجدى على الأمبراطورية من سياسة العنف ، أى أن هدف اللين اليوم هو نفس هدف العنف بالأمس . ودليلنا على ذلك هو أن مشروع الوحدة الفرنسية الذى أشارت إليه المادة ٤١ من الدستور الذى خذله الفرنسيون فى الانتخابات الأخيرة ، لم يقم أى وزن لآراء هذه البلاد ولم يوص باستشارتها بل فرضها فرضاً ؛ فهو مشروع فرنسى من فرنسا وإلى فرنسا .

أضف إلى ذلك أن سفير فرنسا ومقيمها العام الجديد فى مراكش ، وهو الذى أرسلته حكومته لانتهاج خطة جديدة فى هذه البلاد التى أنهكتها القلاقل — أعلن برنامجا سياسيا إعتبره المراكشيون ضربة لآمالهم فى الصميم ، ووصفوه بأنه تماد مع سبق الأصرار فى فرض الحماية والأغراق فى تنفيذها ، هذه الحماية التى حاربوا طول مدة ثلث قرن فى سبيل القضاء عليها . والبرنامج يتحدث عن السنين البعيدة المقبلة مقرونة بالحماية وما سوف تقوم به فى المستقبل من أعمال ، ولم يشر البرنامج أية إشارة إلى الإصلاح السياسى أو إعادة النظر فى المعاهدة ، بل اكتفى بالإشارة إلى الإصلاحات المادية المختلفة ناسيا أن يذكر أن الحماية الفرنسية كانت مصدراً رئيسياً لكل هذه الويلات التى تعانيها مراكش ، والتى يظهر أن الفرنسيين لا يفهمونها ، فإن من الواضح بعد هذه التجربة الطويلة أنه لا يمكن القيام بأى إصلاح فى هذه البلاد ما دامت الحماية قائمة ، بل يرجح القارئ أن واضع البرنامج لم يسمع شيئا عن مشروع الوحدة الفرنسية ؛ فهو مهما يقل فيه اعتراف صريح بأن النظام القائم الآن لم يعد صالحاً وكأنه لم يسمع شيئاً أيضاً عن تاريخ مراكش خلال ثلث القرن الأخير .

وإذن فنحن لا نتردد فى القول بأن مستقبل مراكش ما زال محفوفا بالأخطار ، وإن الابتسامة الحاضرة هى صرف للنظر أو تخدير للأعصاب . هى كسب للوقت بالنسبة لفرنسا وإضاعة للوقت بالنسبة لمراكش ، ولكن الذى يسرنا أن نعلنه هنا هو أن حزب الاستقلال المراكشى ، وهو الحزب الذى يعبر عن صوت الأمة القوى المجلجل ، قد أعلن سخطه على بوادر السياسة الفرنسية ورفض أن يتعاون مع الحكومة أو أن يهادنها ما لم تعلن صراحة أن معاهدة الحماية ملغاة . وبعد ذلك تبدأ المفاوضات بين حكومة مراكشية شرعية وبين حكومة فرنسا لعقد معاهدة جديدة بين الطرفين .

لن يقبل المراكشيون غير هذا . والظاهر إلى الآن أن فرنسا غير مستعدة للنظر فيما يشبه هذا ، وإذن فمراكش ما تزال مهددة بأن يكون لها مستقبل شبيه بذلك الماضى القريب ، خصوصاً إذا لم يصل وفد حزب الاستقلال الذى يوجد الآن فى باريس مع رجال فرنسا إلى نتيجة مرضية ، ففى حاضر مراكش الآن هدوء ولكنه ربما كان الهدوء الذى يسبق العاصفة .

عبد الجبير بن جلون

من عجائب التصحيف

للأستاذ محمود عزت عرفة

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

... ومن عجائب التصحيف أن أحدهم ربما يقع فيه فيخرج بما هو خير من الأصل ، بتصحيح حسن للصحيح ، فيقبل ذلك منه ويحفظ عنه ... كالذي يروى عن جابر بن هبة الله أنه قرأ على الحريري مقاماته — في سنة أربع عشرة وخمسمائة — فلما بلغ قوله(١) :

يأهلَ ذا المغنى وُقيتم شرا ... ولا لقيتم ما بقيتم ضُرًّا
قد دفع الليلُ الذي اكفهرّا ... إلى ذراكم شَعِثًا مغبرّا

قرأها (سغبا معترا) ... ففكر الحريري ساعة ثم قال : والله لقد أجدت التصحيف فإنه أجود ، فرب شعث غير محتاج ، والسغب المعتر موضع الحاجة . ولولا أني قد كتبت خطي إلى هذا اليوم على سبعمائة نسخة قرئت علي ، لغيرت الشعث بالسغب ، والمغبر بالمعتر(٢) .

وربما كان يفضي التصحيف أحياناً إلى بركة ونفع ، ويعود بخير على قارفه أو على من يتصل به ... كالذي يروى أن تميم بن زيد القضاعي كان والياً على الهند ، وكان في حبسه رجل يقال له خُنيس أو حُبَيْش؛ فلما طال حبسه أتت أمه قبرغالب بن صعصعة (أبو الفرزدق الشاعر) ، فأقامت عنده حتى علم الفرزدق بمكانها فأتته وذكرت حبس ابنها ، فكتب إلى تميم بن زيد :

فهب لي حبيشاً واتخذ فيه منّةً ... لغصة أمٍّ ما يسوغُ شرابُها
أتتني فعاذت يا تميمُ بغالبٍ ... وبالحفرة السافي عليه ترابُها
تميمَ بن زيد لا تكوننَّ حاجتي ... بظهر، فلا يخفى عليك جوابُها

فلما أتاه الكتاب لم يدر أحبيش أم خنيس ، وفي حبسه عدة حبيش وخنيس ، فأطلقهم جميعاً ...

(١) المقامة الخامسة الكوفية .

(٢) ينسب أبو محمد بن الخشاب البغدادي إلى الحريري أنه كان كثير المحو والاثبات في مقاماته « يكثر على النسخة مير ظنا منه أنه أخطأ ، وكيف وقد غربت وشرقت ، وأشأمت وأعرقت » : من رسالة ابن الخشاب .

وحكى أبو الحسن بن الكوفي عن محمد بن عبيد عن شيخ له أن رجلا كان يقرأ على الأصمعي شعر النابغة فقال : كليني لهمٍّ يا أميمةَ باضتٍ ... بدل ناصب . فقال الأصمعي : أما علمت — ويلك — أن كل ناجة الأذنين تحيض ، وكل سكّاء الأذنين تبيض ! فصار تصحيف الرجل فائدة لنا . ثم قال ابن الكوفي : لا أعلم تصحيفاً جر فائدة إلا هذا الحرف !

على أن للتصحيف — على عكس ما ذكرنا — جنايات قد تلحق غير أهله ، وشؤماً ربما أصاب من لم يتعلق منه بسبب . فمن الذين جني عليهم التصحيف حبيش بن الحسن الأعسم أحد تلاميذ حنين بن إسحق الطبيب . قال القفطي: « من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له ، فإن أكثر ما نقله حبيش نسب إلى حنين . وكثيراً ما ترى الجهال شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش ، فيظن الغرّ منهم أن الناسخ أخطأ في الاسم ، ويغلب على ظنه أنه حنين وقد صُحّف ، فيكشطه ويجعله لحنين !

ولعل أبلغ جنايات التصحيف إنما وقعت على مخنّثي المدينة الذين خصى ستة منهم أو سبعة بشؤم تصحيفة واحدة . وحديث ذلك أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى ابن حزم أمير المدينة أن احص من قبلك من المخنثين . فصحّف كاتبه فقرأها : اخص من قبلك من المخنثين (بالخاء المنقوطة) ، فدعا ابن حزم بهم فخصاهم . وكان ممن خصى بشؤم هذه النقطة : طويس ودلال وبرد الفؤاد ونومة الضحى ونسيم السحر وضرة الشمس .

قال جمدبة : قلت لكاتب ابن حزم : زعم المخنثون أنه كُتِب إليهم أن (أحصِهم) . فقال : يا ابن أخي ! عليها نقطة إن شئت أريتكها... قال : وقال الأصمعي في روايته : عليها نقطة مثل سهيل(١) ، ولما وقعت الواقعة على طويس قال : هذا الختان الأكبر ! وقال نسيم السحر : أف لكم ، ما سلبتموني إلا ميزاب بولي !

* * *

هذا ، وللمصحفين لجاج يدفعهم إليه ضعف مُنّتهم عند المحاجة ، وقد يفضي بهم ذلك إلى الإفراط في المماراة وإلى الكذب والدعوى والاختلاق ، على حد قول القائل في أحدهم :

يكسر الشعر فإن عاتبته ... في محال قال في هذا لغة !

(١) نجم في السماء معروفة يظهر للرائي بوضوح .

حدث المبرد قال : أنشدنا يوماً أبو العلاء المنقرى :

قفا نبـــك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومرى

فقلت : باللام . فقال : كذا قلت باللام فحومرلى !

وقال محمد بن عمر الجرجانى : صحف ابن الأعرابى فى شعر الكميت وأنا حاضر ، فأنشد :

فباتوا من بنى أسد عليهم نجارٌ من خزيمةَ ذى القبولِ

فقلت : إنما هو (باتوا) بالتاء . فلوى شدقه !

فقلت : إن بعد هذا البيت ذِكرُ المبيت :

وقالوا[1] بالأيامن مُتاهم فيا بعد البيت من القيـل !

فقال : لا يُلتفت إلى هذا ! ثم بلغنى أنه ينشده كما قلت له ! !

وحدث على بن الحسن الإسكافى قال : لما خرج « بغاء » إلى منبج متقلداً أمرها كان معه كاتب ، فقرأ عليه يوماً كتاب عامله بسميْساط ، وأن فلاناً سقط عن (برذونه) يعنى (برذَونه)[2] . فقال بغاء : مابرذونة ويحك ؟ ! فقال : جبل بين سميساط والروم ، وهو الحد بينهما . قال : فلم ندر من أى شيء نعجب ، من تصحيفه ، أم من احتجاجه بما احتج به ! ؟

***

وقد وضع اللغويون فى التصحيف والتحريف كتباً كثيرة ، ولكن لم يصل إلى أيدينا منها إلا القليل . ونحن نشير هنا إلى أهم هذه المصنفات وأسماء مؤلفيها :

١ — كتاب تصحيف العلماء لأبى محمد بن قتيبة (توفى عام ٢٧٠ هـ) .

٢ — المصحّف لعلى بن الحسن المنائى (توفى بعد سنة ٣٠٩ هـ) .

٣ — الكلام على ابن قتيبة فى تصحيف العلماء ، لأبى محمد ابن درستويه (توفى عام ٣٤٧ هـ) .

٤ — التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه ، للحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى (توفى عام ٣٨٢ هـ) .

٥ — التصحيف للدارقطنى — أبو الحسن على بن عمر (توفى عام ٣٨٥ هـ) .

٦ — الرد على حمزة فى حدوث التصحيف لإسحق ابن أحمد الصفار (توفى بعد عام ٤٠٥ هـ) .

٧ — التصحيف والتحريف لعثمان بن عيسى البلْطى (توفى عام ٥٩٩ هـ) .

٨ — متنزه القلوب فى التصحيف ، لعلى بن الحسن الحلّى (توفى عام ٦٠١ هـ) .

***

هذا ما عنّ لنا أن نبسط القول فيه من موضوع التصحيف والتحريف ؛ وقد أغفلنا ما كنا أزمعنا الإشارة إليه من طرائف التصحيفات التى وقعت لنا خاصة ، أو لبعض معارفنا من أفاضل الأدباء على هذا العهد ، فلذلك مجال آخر من الحديث ، ولسنا نكره أن يسبقنا إليه بعض الأدباء ممن تتوفر لديهم بواعث الإفاضة فيه .

ومنا إلى الأستاذ الطنطاوى — الذى بعثنا على كتابة هذه الكلمة بين سغب رمضان وحر الصميد — أطيب تحية وأزكى سلام ...

(جرجا) **محمود عزت عرفة**

مراجع المقال :

١ — الفهرست لابن النديم .
٢ — معجم الأدباء لياقوت .
٣ — التصحيف والتحريف للعسكرى .
٤ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى .
٥ — المزهر للسيوطى .
٦ — إحياء علوم الدين للغزالى .
٧ — مطالع البدور لعلاء الدين البهائى .
٨ — حياة الحيوان الكبرى للدميرى . . وبعض مصادر أخرى

(١) من القيلولة وهي نوم منتصف النهار .
(٢) البرذون دابة الحمل الثقيلة ، أو التركى من الخيل .

الأدب في سير أعلامه :

ملـــــتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأســـتاذ محمود الخفيف

— ٢٥ —

في ميدان السياسة :

نفض ملتن يديه من الخصومات ، ولبث يترقب أنباء الحرب ، وإن الحنين إلى الشعر ليزداد في نفسه يوماً عن يوم ، حتى ليكاد يجزم أنه عائد إليه عما قريب وجاعل همه كله إليه ، كما كان أمره قبل أن ينصرف عنه سنة ١٦٤١ إلى الحرب التي أوقد نارها على القساوسة معتقداً أنها كانت مما يقضى به عليه الواجب نحو وطنه في ذلك الوقت .

ولكن حديث السياسة يشغل باله ويستأثر بفكره أحياناً على الرغم من حنينه إلى الشعر ، حتى ليحسب أصحابها أنها هي اليوم كل همه ؛ ولذلك يحارون في أمره : أكان إلى الشعر يومئذ أم كان إلى السياسة ميله ؟ ولقد نظم مقطوعة سنة ١٦٤٨ يمجد بها القائد الظافر فيرفاكس ، ومنها يتبين القارئ شدة اهتمامه في ذلك الوقت بالسياسة والحرب ، وقوة تحمسه لقضية البرلمان . قال ملتن : « أي فيرفاكس[1] ، يا من يجلجل اسمك كجندي في أنحاء أوربا جميعاً ، فيملأ كل فم بالحقد أو بالثناء عليك ، ويملأ الملوك الحاقدين جميعاً عجباً منك ، ويرسل الشائعات المدوية فتخيف أقصى الملوك موطناً . إن بسالتك الوطيدة التي لا تتزعزع لن تزال تأتي لوطنك بالنصر ، ولو أن ثائرين جدداً يرفعون رؤوسهم الشبيهة برأس الهيدرا[2] ، والشمال الخؤون[3] يعلن ما نقض من عهد ليريش أجنحتهم الخائنة ، وإن عملا أجل مما فعلت لا يزال يرجى على يديك حتى يتحرر الصدق والحق من ربقة العنف ؛ ويتخلص الإيمان العام بالعدالة مما اتسمت به الحياة من سمة مخجلة هي التدليس العام[1] ، إلا أن الحمية لتنزف الدم عبثاً ، بينما نرى الجشع والسطو يقتسمان الأرض »

الحق أنه لم يكن لملتن مندوحة عن السياسة وأنبائها ، حتى لو أنه حاول بكل ما في وسعه أن يتجنبها ما استطاع ؛ ومهما يكن من شدة حنينه إلى الشعر وعظم رغبته في أن يعود إليه ، وقد حبس نفسه عليه سنين من عمره ، وتوفر على دراسة وسائله وأسباب النبوغ فيه ، فما كان بقادر على أن يعتزل قضية الحرية ، وهو نصيرها في كل وجه من وجوهها ، وإنه وقد استطاع أن ينتزع نفسه من الشعر انتزاعاً سنة ١٦٤١ ليوقد نار الحرب على القساوسة دفاعاً عن الحرية ليجد اليوم من اليسير عليه أن يرجئ العودة إليه ، ولو إلى أجل قريب لينظر ما ذا تكون عاقبة ذلك الصراع المظيم بين الملك والبرلمان ، أو بين سلطة الفرد وسلطة الشعب .

وكان ذلك الصراع المنيف بين الملك والبرلمان صفحة مجيدة في تاريخ الحرية ؛ أو فصلا رائعاً من تاريخ الإنسانية في تمردها على الأغلال وأنفتها من الاستعباد ، أو على حد تعبير مكولى في قوله : « لقد عاش ملتن في عصر من أبقى العصور ذكراً في تاريخ البشر ، حيث كانت ساعة الفصل في ذلك النزال العظيم بين هورومازدو أهريمان[2] بين الحرية والطغيان ، بين العقل والهوى ، ولم تكن هذه المركة العظيمة من أجل جيل واحد ولا من أجل وطن واحد ، وإنما ارتبطت مصاير الجنس البشري كله بما يكون من مصير الحرية لدى الشعب الإنجليزي ، فها هنا أعلنت لأول مرة تلك المبادئ الفلابة التي اتخذت منذ ذلك الحين سبيلها إلى أعماق الغابات الأمريكية ، والتي أثارت ثائرة اليونان على ما ضرب عليهم ألفي سنة من الذلة والتدهور ، والتي أوقدت في قلوب الشعوب المظلومة في أوربا من أحد طرفي القارة إلى طرفها الآخر ناراً لا تنطفئ جذوتها ، وأرهكت مفاصل الطاغين

---

(١) فيرفاكس ، أحد مشاهير قواد البرلمان أثبت بطولة في معركة نسبي سنة ١٦٤٥ وحاز انتصاراً باهراً على الملكيين سنة ١٦٤٨

(٢) التنين الخرافي ذي الرؤوس السبعة التي كلما قطع منها رأس نبتت رأس

(٣) يقصد الاسكتلنديين الذين نقضوا ما عاهدوا عليه البرلمان سنة ١٦٤٣ أن يكونوا نصراء له على شارل

---

(١) اتهم المستقلون البرسبتيريين بالرشوة وفساد الحكم .

(٢) إلهي النور والظلمة في الديانة الفارسية القديمة كما جاء بها زرادشت

بما لا قبل لهم به من خوف » .

ونحسب بل نكاد فى الحق نجزم أنه لولا ما كان فيه ملتن من شغل شاغل بمحاربة القساوسة ، ثم بما منى به من خيبة فى زواجه ، وماجره ذلك عليه من خلاف شديد بينه وبين البرسبتيريتز وحرب منه أدارها عليهم ، ما كان ليذر قضية البرلمان بضع سنين بغير دفاع منه فى كتيبات كتلك التى نشرها منذ سنة ١٦٤١ ، فإن رجلا له مثل روحه الحرة الوثابة ، ومثل ثقافته الواسعة الممتازة ، لخليق بأن يناضل بقلمه فى تلك المعركة الدائرة فى سبيل الحرية ، وجدير ألا يكون نضاله بالقلم أقل بأساً من نضال الشاهرين سيوفهم الباذلين فى سبيل النصر أرواحهم .

ونعتقد أن يأسه من الإصلاح وحنقه على بنى قومه لعزوفهم عما دعاهم إليه لم يكن كما حسب بعض الناس ليميل به عن السياسة يائساً منها كما يئس من غيرها ، بل لقد كانت المعركة الدائرة هى أمله الباقى الذى ينبثق نوره فيما يكتنفه من الظلمات ، ولذلك علق عليها من الرجاء مثلما يعلقه الغريق على آخر أمل له فى النجاة !

ولملتن اهتمام بالسياسة من جهة أخرى ، فهو خصيم البرسبتيريتز ، ويود لو يذهب سلطانهم . وهو منذ حملتهم عليه أقرب إلى المستعلين مذهباً ، بل وأكثر منهم استقلالا ، ولذلك فهو يتمنى نجاحهم ويتجه بقلبه إلى كرمول وجنوده ، ويتضح موقفه من الفريقين فى مقطوعتيه اللتين ندد فى أولاها بالبرسبتيريتز مستكرهى الضمائر سنة ١٦٤٦ ، وامتدح فى الثانية فيرفاكس أحد قواد جيش البرلمان سنة ١٦٤٨ .

هكذا لبث ملتن يترقب ويجعل للسياسة همه ، فلما تأكدت قوة كرمول والمستعلين بعد الحرب الأهلية الثانية ، تبين أن الثورة توشك أن تصل إلى نهاية حاسمة ، ورأى ملتن أن الملك وقد ظل على شديد استمساكه بالأسقفية ، وأخذ يفاوض البرسبتيريتز والاسكتلنديين ، إنما يتضح أمره يوماً عن يوم أنه العقبة الكئود فى سبيل التسوية ، فلما أراد زعماء المستقلين أن يخطوا الخطوة التى يقضى بها الموقف ، وهى طرد البرسبتيريتز من البرلمان ومحاكمة الملك ، تبين ملتن أن الله استجاب دعاءه ، وأن مصير وطنه ومصيره بسبيل أن يتقررا ، وعاودته حماسته إلى الكتابة ، ومن ثم شرع قلمه .

وأخذ ملتن بعد كتيباً جديداً ، وقد بدأه قبل أن تبدأ محاكمة الملك ، وفرغ منه قبل إعدامه بأيام ، فكان صوته أول صوت ارتفع ، والناس عالقة أنفاسهم دهشة ورهباً ، ونشره فى يناير سنة ١٦٤٩ وجعل عنوانه « حق الملوك والحكام » .

وقد ذاع اسمه فى أوربا بهذا الكتيب الذى برر فيه إعدام الملك ، حتى إن زائرى انجلترة يومئذ كانوا يتطلعون إلى رؤية رجلين أحدهما أليفر كرمول رجل السيف ، والثانى جون ملتن رجل القلم . وشاءت الظروف أن يشتهر اسم صاحب الفردوس المفقود أول ما اشتهر فى القارة بصلته بحادث إعدام الملك وجرأته فى الدفاع عن هذا الفعل قبل أن يشتهر بالشعر ، فلم يك قد بدأ قصيدته الكبرى بعد ، أما شعره الذى نشره قبل ذلك ، فلم يقدره حق قدره فى انجلترة إلا خاصة المثقفين ، ولم يعرفه فى القارة إلا قليلون .

ويعد هذا الكتيب من أكثر كتيبات ملتن متعة وأعظمها شأناً ، فقد بسط فيه طائفة من المبادئ العامة فيما يتصل بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبعض هذه المبادئ قديم يرجع عهده إلى أول عهد المفكرين من الإغريق بالآراء الديمقراطية ، ولكن ملتن يعرضها عرضاً جديداً ، بينا يعينه على حسن بيانه إياها سعة ثقافته ، وبعضها يظهر فيه ابتكاره أكثر مما يظهر اعتماده على ما خلف غيره من المفكرين .

والكتيب فى جملته عليه طابع ملتن فى سمو بلاغته وشدة حميته وروعة أدائه ، وهو فى روحه العامة صيحة على الطغاة ، وتنديداً بالمستبدين ملوكا وحكاماً ورجال دين ، وقد افتتحه ملتن بتبرير ما فعل الجيش جميعاً ، وعد ما لحق الملك جزاء عادلا من الله على ما قدمت يداه ، وجعل جانباً كبيراً منه لتأييد حق الناس فى اختيار حكامهم وعزلهم ، واختتمه بحملة نكراء على البرسبتيريتز والقساوسة إلا من كره منهم الاستبداد وحاد عن سبيله .

وكانت الفكرة التى بنى عليها ملتن تبريره إعدام الملك ، هى

أن الدولة إن هي إلا أداة لخير الناس وأمنهم ، ولذلك فإن إعدام الملك يتمشى مع القانون القائل : «بأن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى سلامة المجموع إنما يعد عملا قانونياً مشروعاً» .

ويتكيء ملتن على العقل والمنطق في الدفاع عن آرائه كما فعل في كتيباته عن الطلاق ، فأساس العلاقة بين الملك وشعبه الوئام والرضى ، فإذا فقد ذلك فقد بطلت شروط تلك العلاقة ، ومن ثم فلا علاقة بينهما ؛ وللناس من الخروج عن طاعة حاكم يعمل لصالحه دونهم ، «لأن سلطته في الواقع مستمدة من الشعب وفق قانون ، وعن قسم أداه ليؤدي بها حق الشعب في الإصلاح والخير لا لأي شيء خلاف ذلك» .

ويقول ملتن إن الإنسان حر بطبيعته ، وأن الرجل العادل لا حاجة به إلى القانون ، فهو يسير على نهج من طبعه ، وما جعل الحكومة أمراً ضرورياً إلا فساد الإنسان ، والحكومة مصدرها الناس الذين وضعوا السلطة في أيدي الملوك أو الحكام على أساس شروط معينة ... ويعرف ملتن الطاغية بناء على ذلك بأنه الرجل الذي يعتقد أن السلطة سلطته هو ، وأنها ما خلقت إلا لنفعه وخيره ... !

ويعتقد ملتن أن مرد الفساد والشر في السياسة كما في غيرها إنما هو إلى سيطرة العاطفة على العقل ، وعلى ذلك فمصدر الشر في الملك عاطفة ، وعواطف الشر في نفسه يوسوس بها الشيطان الذي هو أصل كل عاطفة شريرة ، وإن الواجب ليقضي بمقاومة مثل هذا الملك الذي تتغلب في نفسه العاطفة على العقل !

ويضع ملتن القساوسة في موضع الشيطان ، فإنهم في رأيه أشد أعوان الملك على الطغيان ، وأكبر سند له فيما يتمادى فيه من غي وظلم ، ولا يعني بالقساوسة الكاثوليك منهم فحسب ، وإنما يعني كل محب لنفسه شره تحركه الأطماع الدنيا ، فيدين للطغيان ، ويتخذ من الطاغية نصيراً ، ويدافع عنه حتى ليكون حياله كعبدة الأصنام . ويعود فيوجه ملتن سهامه إلى البرسبتيريز ويلقي على كواهلهم تبعة ما لاقته المملكة من شر على يد شارل ، وينكر عليهم انتماءهم إلى الدين بأي وجه ، أو صلتهم بالمسيح إلا ما يكون من مظهر لهم جرى به العرف ، وهم فيما عدا ذلك ذئاب جائعة لا تشبع بطونهم مهما كان مبلغهم من الثروة ، وكلما وصلت إلى الثراء المريض أيديهم الآثمة على حساب الفقراء والمساكين قالوا هل من مزيد ، ولا وازع لهم من دين ولا من ضمير !

وكان حرياً أن يثير هذا الكتيب اهتمام القائمين على أمر الدولة ، وأن يسرهم هذا الدفاع عنهم وقد جاء في إبانه ، ورأوا أن رجلا كمؤلفه علماً واسع الثقافة شجاعاً لا يخاف في الحق شيئاً ، فصيحاً لا يعي لسانه بأمر مهما عظم ، هو خليق بأن يعول عليه كدعامة من دعائم الحكم الجديد ، ولذلك لم يلبث ملتن أن قلد وظيفة ذات خطر ، فقد جعل قيما على ديوان الرسائل الأجنبية في مجلس الدولة ... والواقع أن هذه الوظيفة لم تكن إلا ستاراً ، فقد كان ملتن رجل القلم والفكر ، المدافع عن الجمهورية الوليدة ، وظل في منصبه هذا يدافع عن الدولة ويرد على كل نقد أو تهجم ، ويكتب ما يوحى به كرمول مما يريد أن يلقيه على انجلترة وعلى أوربا من ضروب القول وأوجه الرأي .

ويتساءل المؤرخون عما دفعه إلى قبول ذلك المنصب ، أكان ذلك رغبة منه في مظاهرة هذه الحكومة ومناصرتها لما توسم فيها من نصرة الحرية ، أم كان لحاجة إلى المال ، أم كان عن رغبة منه في مراسلة ذوي المكانة من الأجانب ، أم أن كبرياءه وذهابه بنفسه وإحساسه بما قدره لشخصه من سمو المنزلة ، جعله يطيب نفساً بمثوبة الحكومة إياه ، إذ يحس في عملها هذا نوعاً من الاعتراف بقدره وخطره ؟

ومهما يكن من أمر منصبه الذي ارتضاه ، فما أبعده عن ذلك الخيال الجميل الذي منى نفسه به قبل ذلك بثمانية أعوام حين تنبأ بفجر بهيج يوشك أن يهل على انجلترة نوره ، وبشر بشاعره إذ قال : « ولن يعدم ذلك الفجر طائره الصداح ، فلسوف يتغنى من بين هؤلاء القديسين الذين ينافحون عن دين الله شاعر يأتي بلحن علوي جديد يشكر به أنعم الله ، ويسجل نصر الله في مملكة تنعم بنعمة الحرية ، وقد تخلصت من القساوسة ومجدت شاعرها المختار » !

وها هو ذا الفجر قد أهل نوره ... فأين طائره الصداح ؟ أين الشاعر وأين لحنه العلوي ؟ كيف ارتضى لنفسه أن يكون

عمـله أن يكتب الرسائل اللاتينية ، وأن ينقل ما يرد منها إلى الإنجليزية ، وأن يرد على الشانئين والحاقدين على الدولة فيعود إلى عنت الخصومة وشغب الخلاف ...

أجل ، كيف آثر الشاعر على الخيلة قاعة الحكومة ؟

ذلك ما لا يسعنا إلا أن نحس حياله من العجب قدراً كبيراً

وكان ملتن يحس كما أسلفنا تضاؤل بصره ، ويشعر أن عليه إزاء ذلك أن يقصد كل القصد فى استعمال ناظريه ، وكان ذلك وحده كافياً فيما نرى لأن يرفض هذا المنصب الذى يتطلب طول النظر فى الرسائل ما يكتب منها وما يترجم ، وفى غيرها من الأوراق التى تحتاج فيها الحكومة إلى معونته ورأيه .

ولـكنه كما رأينا قبل المنصب ، ويرى بعض المؤرخين أن قبوله إياه على شدة حنينه إلى الشعر وكثرة ما يهجس فى نفسه منه ، وحاجة ناظريه إلى الراحة ، هو ضرب جديد من التضحية أشبه بتضحيته الأولى حين هجر الشعر على رغمه سنة ١٦٤١ استجابة منه لداعى الحرية ، فقد كان يعتقد ملتن أن مساهمته ولو بقدر صغير فى بناء صرح الحكومة الجديد عمل ينطوى على معنى الوطنية ، وبخاصة أنه كان يؤمن يومئذ أن الحكومة الجديدة وقد جاءت نتيجة لذهاب الطغيان لا بد أن تظل نصيرة للحرية ، ولقد أشار إلى هذا المعنى بعد ذلك بقليل فى أحد كتيباته قائلا : إنه تقدم عن طيب خاطر ليخدم بلاده ، حينما طلب إليه ذلك القائمون على الأمر ، وأنه لم يطلب على ذلك أجراً ، وحسبه من الأجر ارتياح ضميره ورضاؤه عن نفسه ، والحق أن المال لم يكن له دخل فى قبوله ذلك المنصب ، فإنه وإن كان ملتن فقيراً ، فقد كان القليل من المال حسبه لما تتطلبه أكلاف عيشه وهى يومئذ قليلة ، وكان لا يعوزه هذا المال القليل .

ونعتقد أن ملتن على حق فيما يعتل به من علة ، وليس يمنع هذا من أن نضيف إليها علة أخرى لهـا كما لهذه فى طبعه من الشواهد ما يكاد يؤكدها ، وتلك هى رغبته التى لازمته منذ صغره فى أن يكون عالى القدر ممتاز المكانة ، واختياره لهـذا المنصب يحقق له تلك الرغبة ، فضلا عما فيه من معنى الاعتراف له بالفضل وعلو المكانة فى مجال الأدب والمعرفة ، وكانت تطرب نفس كنفسه بلا ريب لأن يكون ذا صلة بتلك الشخصيات الكبيرة التى قضت بجهادها المرير على الاستبداد الذى يمقته أشد المقت ، لا عن ملق أو افتتان بذوى الجاه والمكانة كما يفعل صغار النفوس ، ولـكن عن طموح وكبرياء ورغبة فى السمو ، وعن محبة وإعجاب بتلك الشخصيات لما تنطوى عليه محبته إياهم من معان ، كما يفعل الأباة من أولى الفضل ...

وثمة رأى آخر يضاف إلى تلك الآراء ، وهو رأى « مارك باتيسون » أحد من أجادوا الكتابة عن ملتن ، ومؤداه أنه لا يبعد أن يكون ملتن قد رأى فى المنصب مجالا جديداً للازدياد من المعرفة والحكمة ، وهى مما يتطلبه الشعر من زاد ، فقد طالما رأيناه من قبل يعد بأن يتوفر على الشعر متى استكمل منه عدته ، وتم له ما يتوق إليه من نضج وخبرة بالحياة ، وعلى ذلك فلن تذهب تضحية بوقته وبصره هباء ، فلسوف تجدى عليه وثيق المعرفة بأحوال الناس وأمور الحياة !

(يتبع) **الخفيف**

حول الاتباعية والابتداعية

Clâssieism and Romamticism

للاستاذ فخرى قسطندى

— ٢ —

عرضنا فى مقال سابق للونين من ألوان الأدب ، وضربين من ضروب الخلق الفنى هما الكلاسيكية والرمانتيكية ، وأبنّا كيف اضطرب القول فيهما وتضارب الرأى فى مدلولاتهما ومعانيهما ، ثم رجعنا بالذاكرة إلى القرن الثامن عشر ، وألمعنا إلى اهتمام الأدباء الإنجليز بآثار الماضى التالدة ، وإلى اشتغالهم بدراستها وتبيان محاسنها . تلمس ذلك فى أحاديثهم ، وتستشفه فى كتاباتهم ، وتطالعك به تواليفهم، حتى لقد يشتد بك العجب ويأخذ منك كل مأخذ ، فأنت لا تقع على كاتب أو شاعر إلا وقد أغرق فى وصف هذه الآثار والأطلال والرسوم ، وأمعن فى التعبير عن إعجابه بها : فهو مفتون بروعتها ، مأخوذ بسحرها وجاذبيتها .

ولا عجب ، فهذه أشياء كلها ذات طابع ابتداعى يزينها ويجعلها تنفرد به وتختص بها . غير أنها ليست ذات طابع رومانتيكى فحسب ، بل هى تتسم أيضاً بطابع قوطى ، له ما للطابع الرومانتيكى من خصائص ومميزات ، وبينه وبين الكلاسيكية من بون شاسع واختلاف كبير كالاختلاف بين الرومانتيكية والكلاسيكية . فهناك مقطوعات رومانتيكية أو قوطية ، كما أن هناك مقطوعات كلاسيكية . وتكون المقابلة بين رومانتيكية هذه المقطوعة وبين كلاسيكية تلك . ولا أدل على ذلك أو أبلغ من قول هرد فى « رسائله عن الفروسية والرومانس أن منظومة الملكة الجنية Faerie Queene للشاعرة الإنجليزية الكبيرة إدمند سبنسر Edmund Spenhcr منظومة قوطية ، وليست كلاسيكية كما يزعم البعض .

ومن ثم فأنت ترى أن الطابع القوطى ينبىء عن عصور غابرة أزال الله من دولتها ، فانطمس رسمها ودرس منها ؛ هى العصور الوسطى ؛ وأنت ترى أن مثله فى ذلك مثل الطابع الرومانتيكى تماماً . فهو يتراءى مثله إلى أبعد غايات الشذوذ والاضطراب بدلا من التجانس والاتساق ، وهو يمتاز بخيال مقرب يتنكب الطريق المطروق ، فيحيد عن المألوف ويخرج عن المعروف .

وما كان الأدب إلا شكلاً من أشكال الفن يقوّم بما يقوم به الفن من معايير ، ويقاس بما يقاس به ، ويصدق على الفن ما يصدق عليه . والأدب شعر ونثر وما يتصل بالشعر والنثر من مبحث وموضوع ، وأنماط وقوالب ، وصيغ وتراكيب ، وعبارات وألفاظ ، وعرض وسياق ، وحس وشعور . وهو إما أدب رومانتيكى قوطى يتصف بما تتصف به آثار العصور الوسطى ، ويضرب شعره ونثره وما يتصل بهما بسهم وافر فى الشذوذ والاضطراب والإغراب فى الخيال . وهو إما أدب غير رومانتيكى قوطى ، خلو من جميع الخصائص والصفات التى سبق ذكرها .

هذا ما كان من شأن الأدب، وهذا ما كان من شأن الرومانتيكية فى انجلترا فى القرن الثامن عشر . غيرأن الدهر غير ، فاهى إلا دورة من دورات الفلك حتى درست القوطية ، واندثرت ، واختفت من معاجم الأدب . وحان الحين للرومانتيكية أن تتربع وحدها على عرشها ، وأن تصبح ذات الكلمة الناقدة والسلطة الأولى واليد الطولى فى الحكم على تواليف الأدباء . على أن الرومانتيكية لم تستقر طويلاً فى انجلترا ، فما لبث أن ذاع صيتها واشتهر أمرها وتراءى خبرها إلى فرنسا . فاستعملها روسو فى كتاباته ، وكان استعماله لها بشيراً بازدياد سيرورتها واتساع انتشارها . فما هى إلا فترة أو بضع فترة حتى تلقفها الكتاب الألمان ، وعكفوا على درسها وشرحها ، فاستوعبوها وفلسفوها وبينوا معالمها واختطوا لها الأصول والقواعد

ويعزو جيته إلى نفسه فضل إدخال هذه الكلمة إلى ألمانيا ، ونحن نشك فى هذا الفضل فقد يعزى إليه أو قد يعزى إلى غيره؛ ولكن هذا لا يعنينا فى هذا المقام ، وإنما يعنينا أن نستقصى ما قاله ، ونتعرف ما له من أثر . قال :

« إن فكرة التفرقة بين الشعر الكلاسيكى والشعر الرومانتيكى هذه التفرقة التى طبقت شهرتها الآفاق ، والتى تثير من المنازعات والانقسامات الشىء الكثير ، ترجع فى الأصل إلى شيلر Schiller وإلىّ . فقد صغت فى عبارة موجزة طريقة معالجة الشعر معالجة موضوعية ، وأنا آبى أن أقتفى خطى أية طريقة أخرى ، غير أن شيلر الذى يهتم بالناحية الذاتية يعد طريقته الطريقة الصحيحة . وقد اعتنق آل شليجل Schlegels هذه الفكرة ، ومن ثم فقد

انتشرت فى جميع أنحاء العالم، وكل فرد يتحدث الآن عن الكلاسيكية والرومانتيكية اللتين لم يطرقهما أحد بتفكيره منذ خمسين عاما ».

والواقع الذى لا مرية فيه أن جيته ساهم بنصيب موفور فى انتشار الرومانتيكية . وينعكس ذلك فى الكتاب الذى طلعت به مدام ستايل madame de Staël على جمهرة النقاد وعامة القراء وعنوانه « من الألمانية ، De L'allemagne » ، وأتت فيه على ذكر الرومانتيكية عند أدباء الألمان ، وما استأثرت به من عنايتهم الفائقة واهتمامهم البالغ . أما مدام دى ستايل فيقول عنها فيكتور هيجو فى مقدمته لديوان أشعاره Nouvelles Odes إنها أول من جرى لسانها بعبارة « الادب الرومانتيكى » فى فرنسا

وكأن لفظة رومانتيكى سئمت حياة الترحال والتجوال ، وحنت إلى حياة الثبات والاستقرار ، فولت وجهها شطر وطنها الأصلى ، فعادت إلى انجلترا ، واطمأن بها المقام هناك ، وقد وضحت معالمها واستبانت خطوطها ، على نحو لا ترقى إليه شبهة بل ينهض عليه الدليل .

فبيرون يفهم من الرومانتيكية ما يفهمه جيته حين يقول — أى بيرون « إن شليجل ومدام دى ستايل حاولا جهدهما أن يلتزما فى تقسيم الشعر قسمين اثنين ، وهما الكلاسيكى والرومانتيكى وسوف يكون من نتيجة ذلك مناقشات حامية » .

ومن عجب أن الرومانتيكية لم تصادف هوى فى نفوس أدباء الإنجليز ، فصدفوا عنها ولم يعنوا بها عناية غيرهم بها ، بالرغم من أنهم هم الذين ابتدعوها وابتكروها . فبينا نرى الرومانتيكية فى فرنسا وألمانيا قبلة أنظار الكتاب والشعراء ، ثم عنوانا لمدرسة من المدارس الأدبية ، نراها فى انجلترا محل استخفاف الأدباء الإنجليز واستهانتهم ، ومن ثم فقد أعوزها عندهم الدقة والوضوح .

أما الفرنسيون فقد وضعوا الكتب والمؤلفات فى التعريف بها ، وبذلوا الجهد الجهيد فى تحديد مفهوماتها ومدلولاتها ، ولعل لبرنتير Brunetiere الفضل الأكبر فى إزالة ما يكتنفها من غموض وإبهام . أما الألمان فقد نسجوا حولها نظرية فلسفية أحكموا أطرافها فجاءت متلاحمة متواشجة ، يدفعهم إلى ذلك الجرى وراء المجردات ، والاندفاع وراء النظريات .

(للبحث بقية)

فخرى قسطندى

---

٣ — من الأدب التركي :

الموت يتكلم . . . !

« ما الموت إلا تمام حد الانسان لأنه حي ناطق ميت ، فالموت تمامه وكماله ، وبه يصير إلى أفقه الأعلى ، فكيف إذن يجزع منه » (ابن مسكويه)

يامن يراع إذا تمثل صورتي فيم ارتياعك ؟
هون عليك ففي ابتعادك عن بني الدنيا انتفاعك
لك ضجعة عندي تريحك هل سيؤذيك اضطجاعك

أونست من دنياك تسبح في خضم هائل
يغشاك موج فوق موج تحت غيث هاطل
لم لا تسر إذا وصلت مبكراً للساحل ؟

أنا في الحياة كمنجل في كف حصاد بصير
أهوى على الذاوي فأقصيه عن الزهر النضير
لولا مبادرتي لضاق الروض بالعدد الكثير

كم من مريض قد غزاه الدهر بالداء العياء
متململا يرجو الشفاء من الطبيب ولا شفاء
يمت منزله فكان له على يدي الدواء

سيزول عنك الجهد حين تتيه في نوم عميق
باطالما كانت تصادمك المآزق في الطريق
فإذا انتصرت على مضيق زل نعلك في مضيق

ماذا تركت على الحياة سوى جناة آثمين
كانت قلوبهمو تئز عليك بالحقد الدفين
قد بت مرتاحاً وباتوا — رغم بعدك — متعبين

تالله ما قصر تخير لحسنه نم الجباه
قد حفه روض أنيق بملأ الدنيا شذاه
أزكى تراباً من ضريح تاه في جوف الفلاه

تالله ما عرس تخف إلى سرادقه الجموع
نثرت بساحته الزهور وأوقدت فيه الشموع
بأجل من نعش يسير على الكواهل في خشوع

تالله ما حلل من الديباج تسبي الناظرين[1]
قد رصعت بقلادة من ساطع الدر الثمين
أشهى لذي التفكير من كفن على ميت دفين

يارب ملتاع كئيب عذبته يد القدر
غمرته دنياه بمختلف الحوادث والغير[2]
وجد الحمام يريحه مما يكابد فانتحر !

يامن يراع إذا تمثل صورتي فيم ارتياعك ؟
هون عليك ففي ابتعادك عن بني الدنيا انتفاعك
لك ضجعة عندي تريحك هل سيؤذيك انطجاعك

محمد رجب البيومي

من وحى المصيف . . .

أترع الكأس من سلاف حلال   وارو قلباً قد أظمأته الليالي
غافل الدهر ساعة وتنقل   بين ظل وكوثر سلسال
هذه جنة دعوها مصيفاً   أسكرت خافقي وأذكت خيالي
شادها الله كي نشاهد فيها   لجنان الخلود خير مثال
ولو أن الجنان كانت كهذي   لكفى صوغها بهذا الجمال

ها هو البحر في لساني أجاج   وبقلبي مذاقه كالزلال
صفحة تشبه السماء صفاء   قد أضاءت بخرد كاللآلي
يحتضن الخضم وهو غضوب   يرسل الموج عالياً كالجبال
فتراه كعاشق قر عيناً   بحبيب أمده بالوصال
هادئاً يغمر الحسان بلثم   وعناق يثير حقد الرجال

وبدا الشاطئ البديع كروض   بورود من العرائس حال
ناعمات يوقظن كل فؤاد   جالسات مع الهوى والدلال
خاطرات مثل النسيم رخاء   مائسات في فتنة واختيال
فوق صدر الرمال مستلقيات   فارشفي الحسن ياشفاه الرمال

أحمد هيكل

(١) الحلل : القطيفة الناعمة
(٢) غير الدهر : مصائبه



إلى الأستاذ على العمارى (١)

إنه لا يزال فى الناس يا سيدى من يتهم المشايخ بالغلاظة والثقالة ، ولا يزال فى المشايخ من يقدم للناس أدلة هذا الاتهام مع أن العلماء كانوا هم أهل الظرف ، وكانوا بُرَءاء من هذه الصفات التى ينكرها الناس على (علمائنا) والتى جعلوا لها من إنكارهم إياها اسماً عَلَماً عليها هو (المشيخة ...) وما يريدون بها إلا الغلاظة ، كأن الرجل لا يكون شيخاً عالماً إلا بهذا الوقار البارد وهذا التزمت الفاسد ، وهذا الجد الكاذب ، والسبحة الطويلة والنصائح المتكلفة المكررة المملولة ، والأمر بالمعروف بغير الأسلوب المعروف ، والنهى عن المنكر بالطريق المنكر ، وإقامة القيامة على (الضعيف ...) يحلق لحيته ، أو يحرق دخينته ، أو يؤم المساء فى غير محرم قهوته ، ويسكتون عن منكرات الحكام ، وضلالات الأحكام ...

لذلك شكرت لك ما كتبت عن ظرف الفقهاء ، وما دفعت عنا (معشر المشايخ) من هذه التهمة (غير) الباطلة ، وجمعتُ طائفة صالحة من الأخبار المتفرقة فى كتب السيرة والتراجم ، وأسفار المحاضرات والأدب ، من ظرف العلماء من لدن سيد العالمين وإمام العالمين محمد صلى الله عليه إلى العصور المتأخرة لأهديها إليك ثم وجدت كتابين فى هذا الباب :

كتاب (الظراف والمتماجنين) لابن الجوزى وهو فى (١٠٦) صفحات وقد كان طبعه فى دمشق الأستاذ حسام الدين القدسى منذ ثمان عشرة سنة وكان شرفنى بكتابة مقدمة له ، هى من أوائل ما كتبت .

وكتاب (المراح فى المزاح) للبدر الغزى ، وهو أجمع لأخبار هذا الباب ، وقد طبعه فى دمشق الأستاذ الأديب أحمد عبيد .

وبعد ، فلعلك يا سيدى تكتب أنت الفصل الجامع فى (ظرف الفقهاء) .

قرأت ما كتبت يا سيدى فى العدد (٦٨٧) فقل لى سألتك بالله ، أأنت تجد أم تهزل ؟ وهل تنقل هذا الهذيان عن أستاذ فى الجامعة أم عن حشاش فى القهوة ؟ وهل هذه هى دروس الجامعة التى نرسل أبناءنا إليها ليغترفوا من علوم أساتذتها ما يعودون به معلمين فى مدارسنا ؟ وهل هذا هو دين التجديد الذى بعث به نبى البلاغة فى آخر الزمان ؟ وإذا نحن احتملنا الركاكة والعجز أفنحتمل الكفر من هذا الشيخ الذى يقرر أن الله قال لمحمد (يا أخى أنت حارق نفسك ليه) ؟ لقد عرفنا من جعل لله صاحبة وولدا ولكنا لم نعرف قبل اليوم من جعل لله أخاً ، أفلا يرضى الشيخ إلا أن يكون مجدداً فى الشرك بالله — تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيراً ؟ ولا يعجبه إلا أن يفتح له إلى جهنم باب خاص ؟

وماذا يقول صديقنا العميد الدكتور عزام وهو العالم البليغ المؤمن بهذا الجهل والعى والكفر ؟

أما أنا فأقول : أعيدوا أولادنا إلى باريز ليتعلموا فيها العربية كما كانوا ، فان الجهل الذى يعودون به من باريز ، أهون من الكفر الذى يرجعون به من الشيخ أمين الخولى .

على الطنطاوى

رأى فى مجلة الأزهر :

نرى الآن ، كما يرى المعنيون بالأزهر وإصلاحه ، بوادر نهضة توحى بها رياسته الجديدة وترعاها فى ثقة وهدوء ، وبعد عن الإعلان والادعاء . كما هى سجية المصلح المؤمن بفكرته والذى هو فى الوقت نفسه لا يتخذ من عمله وسيلة لمجده الشخصى .

و « مجلة الأزهر » ناحية من نواحى النشاط الأزهرى التى شملته بوادر هذا الإصلاح الجديد ، فقد عرف أن نظاما جديداً وضع لإخراج هذه المجلة وأن لجنة برأسها فضيلة الأستاذ الأكبر قد أقرت لائحة جديدة لها وأن هذه اللائحة تضمنت النص على أغراض المجلة وما يراد من إصدارها وكيف يمكن أن تكون حاملة لرسالة الأزهر والتعبير عنها أكمل تعبير ، وأن تشمل الاتجاهات الثقافية والإصلاحية للجامع الأزهر .

(١) كتبتها ونسيت أن أرسلها فلذلك تأخرت عن موعدها .

ونحن نرى أن مجلة الأزهر يجب أن يكون لها هدفان : —

الأول إبراز وتصوير نواحي النشاط المختلفة للأزهر وصلاته بالحياة العامة في مصر والخارج وما يقوم به من المساهمة في النشاط العلمي والثقافي والروحي ، وهذه النواحي الثلاث تشمل كما نعلم مصر والشرق العربي وسائر البلاد الإسلامية وكثيراً من بلاد العالم الأخرى .

لذلك نعتقد أنه من الواجب أن ينشأ في المجلة قسم خاص بشؤون البلاد الإسلامية يترجم أو ينقل عن صحف هذه البلاد وينشر الجيد مما يكتبه أعضاء البعوث الإسلامية في الأزهر عن بلادهم والاتجاهات الإصلاحية فيها ، ويكون له توجيه إيحائي إصلاحي يشعر بما للأزهر من حق التوجيه وما عليه من واجب الرعاية لكل ما فيه خير هذه البلاد الإسلامية كلها .

وفي السنوات العشر الأخيرة أرسل الأزهر طائفة من بعوثه ، بعضها إلى الهند لدعوة المنبوذين وبعضها إلى الحبشة وإلى الصين ، وبعضها إلى مؤتمرات علمية ودينية في كثير من بلاد الشرق والغرب . وللأزهر مبعوثون في كثير من بلاد الشرق العربي وأفريقيا وله معهد في لندن وبعوث في جامعات انجلترا وفرنسا .

وهذه البعوث والمعاهد كلها وما قمت وتقوم به من عمل وما وضعته من تقارير ، وهؤلاء المبعوثون ما قاموا وما يقومون به من دراسات وأعمال كان ولا يزال من الممكن أن نجد في مجلة الأزهر عن أعمالها وبأقلام رجالها البحوث الجيدة المفيدة الدالة على نشاط الأزهر وحيويته ومشاركته في بعض مشاكل العالم الفكرية الكبرى وقيامه على إفادة المسلمين والراغبين في هداية الإسلام وثقافته في كثير من بقاع الأرض .

وبين الأزهر وكثير من الجامعات والهيئات الدينية والعلمية المختلفة كثير من المراسلات في شؤون لها من الأهمية ومن العموم والاتصال بشؤون المسلمين وغيرهم ما يجعلها كبيرة القيمة والأثر إذا أبرزت إبرازاً صحفياً مفيداً لقراء مجلة الأزهر والمشتغلين بشؤون الشرق والإسلام .

ولست أقصد بهذا ما هو من الشؤون السرية في هذه المراسلات أو ما ليست له صفة العموم .

هذه الصفحات من نشاط الأزهر وما يرد إليه من رسائل وما يسأل عنه من مسائل لنشرها وإبرازها فوائد أخرى لا تقل عن فائدتها الثقافية في توجيه القراء والمشتغلين بهذه المسائل العامة ، هذه الفائدة هي إشعار الأزهريين بما لهم من الخطر والمكانة وما هم جديرون أن يهيئوا له أنفسهم من عمل وأن يشغلوا به قلوبهم وعقولهم وفراغهم من جد الأمور .

وهذا وحده كفيل بأن يشعرهم الكرامة لأنفسهم ومعهدهم وبأن يكون عاملا من العوامل المؤثرة في حسن توجيههم وإعدادهم لما ينتظر الناس أن يقوموا به من المساهمة في الخير العام لمصر والشرق والإسلام .

هذا وما يتصل به من إخراج الكتب العلمية والدينية إخراجاً علمياً ونقد المؤلفات العلمية نقداً علمياً أيضاً هو الهدف الأول مما اعتقده غرضاً لإخراج مجلة الأزهر .

أما الهدف الثاني فهو إبراز صورة من النشاط الداخلي للأزهر وأقصد بالنشاط الداخلي ما يقوم به الأساتذة والطلبة والمبرزون في الطلبة من البحوث وما يضمه الأساتذة والطلبة والمتخرجون من الرسائل ذوات القيمة ، وما يبرزه هؤلاء وهؤلاء من المؤلفات أو ما يقومون لتحقيقه من النظريات العلمية أو الاجتهادات أو التحقيقات التاريخية .

هذا رأي أبديه بعد ما عرف أن لجنة برأسها الشيخ الأكبر قد وضعت لها منهاجاً تسير عليه في عهدها الجديد .

ولعل « الرسالة » — وعنايتها بالأزهر وبالثقافة الدينية مشهورة مشكورة — تستطيع في عددها القادم أن تنشر على الناس شيئاً مما رأته هذه اللجنة في إصلاح هذه المجلة فقد يجدون فيه ما يجعلهم يتوقعون أن يروا مجلة للأزهر جديرة بأن تحمل اسمه وتفصح عن رسالته .

ونحن نرجو « ونعتقد أن رجائنا سيكون أمراً واقعاً عما قريب » أن الأزهر في عهده الجديد سيقوم بما أعتقد أنه واجبه الأول . وهو رعاية الحياة الدينية في مصر وتوجيهها الوجهة الإصلاحية التي طال ترقب الناس لها والتي ظن كثير من المفكرين وأصحاب الرأي أن الأزهر قد تخلى عنها وأنه رضي لنفسه أن تكون حياته الحاضرة والمقبلة امتداداً لهذه الحياة التي عاشها قروناً طويلة ، هذه الحياة التقليدية البعيدة عن روح العلم والنقد والفهم الصحيح والتي هي بعيدة أيضاً عن مسايرة الحياة والناس والزمان .

ومجلة الأزهر على هذا يجب أن تكون ميداناً من ميادين هذا التوجيه الإصلاحي الجديد للحياة الدينية في مصر والشرق .

محمود الشرقاوي



قدح من الشـــاي

للكاتبة الإنجليزية كاترين مانسفيلد

[كاترين ما نسفلد كاتبة انجليزية ولدت فى نيوزيلندا فى سنة ١٨٩٠ ثم سافرت إلى لندن حيث تلقت تعليمها وأتمت ثقافتها ثم بدأت حياتها الأدبية إلى أن ماتت فى ١٩٢٣ .

واشتهرت الكاتبة بقصصها التى تعنى فيها بتحليل الشخصيات تحليلا قليلا دقيقاً فى أسلوب لا يعرف الرحمة ولا الرأفة وإن كان يجمع فى ظاهره بين الرقة والتهكم وبين العذوبة والمرارة

وفى هذه القصة تحليل الكاتبة لشخصية امرأة يتملكها الغرور وتتحكم فيها الغيرة حاولت القيام بمغامرة تظهر فيها بالكرم والعطف والحنان حتى تعارضت هذه الصفات الأخيرة مع غرورها وغيرتها فأقلعت عن مغامرتها وارتدت إلى طبيعتها الأصلية] .

لم تكن روزمارى جميلة كل الجمال ، فلا تستطيع أن تعدها جميلة . قد تكون حلوة إذا فحصتها قطعة قطعة ... ولكن لماذا تبلغ قسوتك إلى حد تقطيعها إربا ؟ فقد كانت فى ميعة الصبا ، ذكية ، مطلعة ، عصرية ، أنيقة . وكانت حفلاتها ألذ مزيج من أبرز الشخصيات ... والفنانين — مخلوقات نادرة اكتشفتها بنفسها ...

وكانت روزمارى متزوجة من رجل يحبها حباً شديداً ؛ وكان الزوجان غنيين كل الغنى ؛ فإذا أرادت روزمارى أن تبتاع شيئا ذهبت إلى باريس كما تذهب أنت وأنا إلى شارع بوند ، وإذا أرادت أن تشترى بعض الأزهار وقفت بها السيارة أمام أفخم المحال فى شارع ريجنت ، وقالت روزمارى وهى فى المحل بطريقتها المدهشة « أريد هذه المجموعة وهذه وهذه ، وأعطنى أربع باقات من هذا النوع وأصيص الورد ذاك ... نعم سآخذ كل ما فيها . لا ... دع النرجس فمنظره لا يروقنى » .

فيحنى العامل رأسه ويخفى النرجس عن النظر كما لو كان ماقالت عنه هو الحقيقة . ثم تتبعها إلى السيارة عاملة نحيلة تترنح بما على ذراعيها من باقة بيضاء تشبه طفلا فى ملابسه الطويلة

ذهبت روزمارى فى يوم من أيام الشتاء لشراء شىء من محل تحف أثرية وكان يعجبها ذلك المحل لمبالغة صاحبه فى التلطف فى خدمتها ، فكان يشرق وجهه عند دخولها ويقبض يديه ويكاد لا ينطق من فرط احترامه لها وإعجابه بها . وكل هذا تملق طبعا .

وبدأ الرجل كعادته يشرح لها بصوت كله هدوء ، وحركات كلها احترام « إنى أعتز بتحفى فأفضل ألا أبيعها أبدا على أن أبيعها لشخص لا يقدرها حق قدرها أو لشخص يفتقر إلى حاسة تذوق الجمال » ثم تنهد وأخرج علبة من القطيفة الزرقاء وضغطها على المائدة الزجاجية بأطراف أصابعه الشاحبة .

وما كان ليحتفظ لها بهذه العلبة الصغيرة التى لم يعرضها على أحد قبلها إلا لندرتها ودقة صنعها وبهاء صقلها .

وأخرجت روزمارى يديها من القفاز الطويل لتفحص هذه العلبة التى أعجبت بها وأحبتها وصممت على اقتنائها ثم لاحظت جمال يديها على القطيفة الزرقاء وهى تفتح العلبة وتقفلها . وربما جرؤ البائع أن يلحظ هذه الملاحظة عينها فى نفسه لأنه تناول قلما وانحنى على المائدة وزحفت أصابعه الشاحبة إلى تلك الأصابع الوردية المتوهجة وقال بلطف « لو سمحت لى سيدتى أن أريها الأزهار على غطاء العلبة » .

فأبدت روزمارى إعجابها بالأزهار وتساءلت عن الثمن . بيد أن البائع لم يسمعها فى اللحظة الأولى . وأخيرا طرق سمعها « ٢٨ جنيهاً يا سيدتى » .

« ٢٨ جنيها ؟ » لم تنبس روزمارى ببنت شفة ووضعت العلبة ولبست قفازها « ٢٨ جنيهاً » حتى إذا كان المرء غنيا ؟ ... واضطربت روزمارى وحملقت فى أبريق شاى ضخم يعلو رأس الرجل وأجابت بصوت حالم « حسنا ، أيمكنك أن تحتفظ بها لى ؟ — سوف ... » .

ولكن البائع انحنى كما لو كان احتفاظه بها لها واجبا معروفا

وخرجت روزمارى وأوصدت وراءها الباب وتأملت فى الجو الممطر ، وكان المطر يتساقط رذاذا وبدأ الظلام يخيم على الدنيا كالرماد المتهاوى ، واشتد البرد وبدت المصابيح المضاءة حزينة

وكانت الأنوار في المنازل المقابلة معتمة تحترق كأنها تتحسر على فقد شيء وكان الناس يتعجلون السير وقد شرعوا مظلاتهم .

وشعرت روزماري بألم غريب وضغطت بقفازها على صدرها وتمنت لو أن العلبة الصغيرة كانت معها لتتعلق بها أيضاً . ثم نظرت إلى سيارتها التي كانت تنتظرها في الشارع وفكرت في الذهاب إلى المنزل لتناول الشاي .

ولكن في لحظة تفكيرها في ذلك جاءتها من حيث لا تدري فتاة نحيلة قاتمة اللون وقفت قرب مرفقها وصدر منها صوت أقرب إلى الأنين منه إلى التنهد « أيمكنني أن أتحدث إليك لحظة يا سيدتي ؟ »

قالت روزماري « تتحدثين إلي أنا ؟ » والتفتت لترى مخلوقا صغيرا مهدوما ذا عينين جاحظتين تتعلق بيداه المحمرتان بياقة معطفها وترتعش كما لو كان قد خرج تواً من الماء .

تلجلج الصوت وقال « سيدتي ! أسألك ثمن قدح من الشاي » .

« قدح من الشاي ؟ » ولما كان في ذلك الصوت بساطة وإخلاص لا يجتمعان في صوت شحاذ سألتها روزماري « إذن ليس معك نقود أبداً ؟ »

« أبداً يا سيدتي » .

« يالعجب » وتنهدت روزماري وتطلعت إلى الظلام وحملقت الفتاة في وجهها .

وفجأة تصورت روزماري مغامرة أوحت إليها بها هذه المقابلة في الظلام تشبه شيئا من رواية للكاتب المعظم دستوفسكي . لتفرض أنها صحبت هذه الفتاة إلى منزلها ؟ ماذا كان يحدث لو أنها عملت شيئا مما طالما طالعته في الكتب ورأته على المسرح ؟ سوف يكون شيئاً رائعاً ... ثم خطت روزماري إلى الأمام وقالت للفتاة « تعالي إلى منزلي لتتناولي الشاي معي » .

فصعقت الفتاة لهذا العرض المدهش وارتعشت من شدة الاضطراب فمدت روزماري يدها ولمست ذراعها وقالت وهي تبتسم « إني أعني ما أقول » وشعرت بمبلغ بساطة ابتسامتها ورقتها فاضافت « ولم لا ؟ افعلي . تعالي معي في سيارتي » .

أجابت الفتاة بصوت مفعم بالألم والحزن : « إنك لا تعنين ما تقولين يا سيدتي » .

فصاحت روزماري : « ولكني جادة فأنا أريدك أن تفعلي أرجوك أن تأتي معي » .

وضعت الفتاة أصابعها على شفتيها وأنعمت النظر في روزماري وتساءلت بصوت متلجلج « أتأخذينني للبوليس ؟ »

« البوليس ! ... ولما ذا تبلغ قسوتي هذا الحد ؟ لا ، لا . فكل ما أريد هو أن أدفئك وأسمع منك أي شيء يهمك أن تقصيه علي » .

ولما كان من السهل قيادة الجياع تبعت الفتاة روزماري إلى سيارتها .

وامتلأت روزماري بشعور النصر وكادت تقول « الآن ظفرت بك » وهي تحملق في الأسيرة الصغيرة . ولكن ذلك لم يجردها من رقة شعورها وعطفها بل أرادت أن تثبت لهذه الفتاة أن أشياء عجيبة قد تحدث في الحياة وأن للأغنياء قلوبا وأن النساء أخوات .

ثم التفتت روزماري مرتاحة قائلة « لا تخافي ولم لا تجيئين معي ؟ أنا امرأة مثلك وإن كنت أنا أيسر منك حالا . فعليك أن تنتظري مني ... »

وفي تلك اللحظة وقفت السيارة لحسن حظها لأنها لم تعرف كيف تنهي هذه الجملة . ثم دق الجرس وفتح الباب ودفعت روزماري الفتاة إلى داخل الصالة بحركة لطيفة تكاد تكون عناقا وهي تقول :

« تعالي إلى الطابق الثاني . تعالي إلى غرفتي » وأرادت أن تحمي هذا المخلوق من نظرات الخدم فصممت وهما تصعدان الدرج على ألا تدق الجرس لخادمتها جان وعلى أن تخلع ملابسها بنفسها .

صاحت روزماري عندما وصلا إلى غرفة نومها الجميلة بستائرها المسدلة ووسائدها المذهبة ونمارقها الزرقاء والنار تفيء ما حولها من أثاث فخم والأزهار تملأ الغرفة عبيراً حلوا : ها نحن هاتان !

لم تعبأ روزماري بوقوف الفتاة مذهولة على الباب وجرت مقعدها المريح نحو النار وصاحت « تعالي اجلسي على هذا المقعد المريح . تعالي ليدب الدفء إلى جسمك فيبدو عليك أنك تنوئين تحت وطأة البرد » .

قالت الفتاة وهي تتراجع إلى الوراء « أنا لا أجرؤ يا سيدتي »

فتقدمت روزمارى إلى الأمام وقالت : « أرجوك يجب الا تخافى اجلسى . وعند ما أنتهى من خلع ملابسى سننتقل إلى الغرفة المجاورة لنحتسى الشاى . مم تخافين ؟ » ودفعت الهيكل النحيل فى مهده العميق .

ولم يصدر من الفتاة جواب ، بل بقيت كما أجلست ، يداها إلى جانبيها وفمها مفترح قليلا ، وإذا شئنا الإخلاص فى الوصف قلنا إنها بدت غبية . ولكن روزمارى لم تعترف بذلك وانحنت عليها قائلة « ألا تخلعين قبعتك ؟ إن شعرك الجميل مبلل ويحس المرء كثيراً من الراحة وهو عارى الرأس ... أليس كذلك » .

تخلعت الفتاة القبعة البالية وهى تقول همساً : « حسناً ياسيدتى »

فقالت روزمارى : « دعينى أساعدك على خلع معطفك عنك أيضاً »

فوقفت الفتاة ولكنها أمسكت المقعد بإحدى يديها وتركت روزمارى تنزع عنها المعطف ؛ ولكنها تذكرت أنه إذا رام الناس العون فعليهم أن يضحوا ولو قليلا وإلا تعذر العون فى الحقيقة . وماذا كانت تفعل بالمعطف الآن ؟ تركته على الأرض مع القبعة .

ولما همت بتناول سيجارة من علبتها المعدنية قالت الفتاة بسرعة ولكن بخفة وغرابة « معذرة يا سيدتى ، لا سيغشى على سأموت إن لم آخذ شيئاً ياسيدتى » .

« يالله ! كم أنا طائشة » وأسرعت نحو الجرس « شاى ! شاى بسرعة ! وقليل من الكنياك فى الحال »

وكانت الخادمة قد مضت ولكن الفتاة كادت تصيح « لا ، لا أريد خمراً فأنا لا أشربها أبداً . إنه قدح من الشاى الذى أريد ياسيدتى » ثم انفجرت فى البكاء .

كانت لحظة مؤلمة ساحرة . جثت روزمارى بجانب مقعدها وقالت « لا تبك أيها الشىء الصغير الضعيف . لا تبك » وقدمت إليها منديلها الحريرى ولفت ذراعها حول تلك الأكتاف العصفورية النحيلة .

وأخيراً نسيت الفتاة الخجل ، نسيت كل شىء إلا أن كلتيهما امرأة فقالت « لا أستطيع الاستمرار على هذه الحال . لا أحتمل . سأموت جوعاً »

« لن تموتى جوعاً فسأعنى بك . لا تبكى . ألا ترين كم كان جميلا أنك قابلتينى . سنحتسى الشاى معاً وستخبريننى بكل شىء وأعدك أن أدبر لك أمرك أرجو أن تكفى عن البكاء لأنه شىء مضن »

وكفت عن البكاء عندما وقفت روزمارى قبل حضور الشاى لتضع المنضدة بينهما . ثم زودت المخلوق الصغير الضعيف بكل شىء ، جميع أنواع الشطائر والخبز والزبد ، ولما فرغ قدحها ملأته لها بالشاى والحليب والسكر فطالما قال الناس إن السكر منعش جداً . أما روزمارى نفسها فلم تأكل بل كانت تدخن وتنظر للخارج عمداً حتى لا تخجل الأخرى .

وفى الحقيقة كان مفعول تلك الأكلة الخفيفة عجيباً . فلما حملت منضدة الشاى خارجاً كان يتمدد على المقعد إنسان جديد ، مخلوق خفيف ضعيف ذو شعر مجعد وشفاه قاتمة وعيون غائرة مضيئة ، كان يتمدد هذا المخلوق فى نوع من الاسترخاء الحلو ناظراً إلى اللهب متأملا فيه .

وأشعلت روزمارى سيجارة جديدة وبدأت حديثها بكل لطف « ومتى تناولت آخر أكلة ؟ » ولكن فى تلك اللحظة تحرك مقبض الباب وسمع صوت من الخارج « روزمارى ! أيمكننى الدخول ؟ » كان هذا زوجها فيليب .

أجابت روزمارى « طبعاً »

دخل فيليب ووقف محملقاً بضع لحظات ثم قال « إنى آسف لأزعاجكما »

« لا داعى للأسف فكل شىء على ما يرام « هذه صديقتى الآنسة ... »

« سميث ، ياسيدتى »

قالت روزمارى « سميث وسنتجاذب أطراف الحديث لمدة قصيرة »

قال فيليب « حسنا » ، ولمح بصره المعطف والقبعة على الأرض ، ثم اتجه نحو النار وأدار ظهره إليها « إنه مساء كئيب »

قال ذلك بغرابة مصوباً نظره نحو الشبح المتغافل ثم أنحو روزمارى ثانية .

فقالت روزمارى بلهجة غير عادية « نعم . أليس كذلك ؟ »

فابتسم فيليب ابتسامته الساحرة الساخرة وقال لزوجته « فى الحقيقة أود أن تجيئى إلى المكتبة لحظة . هل تسمح لنا الآنسة سميث ؟ »

لحدقت العينان الكبيرتان الفاترتان فى فيليب ولكن روزمارى أسرعت وأجابت عنها قائلة « طبعاً تسمح » ثم خرجا من الغرفة معاً .

ولما انفردا قال فيليب « وضحى لى من هى ، وما معنى كل هذا ؟ »

فاستندت روزمارى إلى الباب وهى تضحك قائلة « التقطتها من الشارع . سألتنى ثمن قدح من الشاى فأحضرتها معى إلى هنا » .

فصاح فيليب « ولكن بالله عليك ما ذا أنت فاعلة بها ؟ »

فقالت « كن لطيفاً معها » كن رقيقاً إلى أقصى حد ... أعتنى بها لا أعرف كيف ... لم نتحدث بعد ... لم نتحدث بعد .. ولكن أظهر لها — عاملها — أجملها تشعر — »

أجاب فيليب « ياطفلتى العزيزة ! أتعرفين أنك مجنونة تماماً ! إن هذا الذى تطلبين شىء يستحيل عمله »

فأجابت روزمارى « كنت على يقين من أنك ستقول ذلك ولكن لم لا ؟ إنى أريدك أن تعمله ؟ أليس هذا سبباً ؟ وعلاوة على ذلك يقرأ المرء دائماً عن هذه الأشياء فصممت — »

فقال فيليب ببطء وهو يقطع طرف سيجاره « إنها حلوة للغاية »

« حلوة ؟ » ودهشت بل حنقت روزمارى لدرجة أن وجهها احمر وقالت « أتظن ذلك ؟ أنا — أنا لم أفكر فى ذلك »

فأشعل فيليب ثقاب كبريت وقال « إنها رائعة الجمال . انظرى ثانياً ياطفلتى لقد اهتزت مشاعرى لما دخلت حجرتك الآن . وعلى كل حال ... أظنك مخطئين خطأ كبيراً . إنى آسف ياعزيزتى إن كنت أبدو وقحاً أو ما شابه ذلك ولكن عرفينى هل ستتناول الآنسة سميث طعام العشاء معنا فى أثناء مطالعتى جريدة المساء ؟ »

قالت روزمارى « يالك من مخلوق ماجن عابث ! » وخرجت من المكتبة ولكن لم تعد إلى حجرة نومها بل ذهبت إلى مكتبها . وهى تردد : « حلوة ! رائعة الجمال ! اهتزت مشاعرى ! حلوة ! جميلة ! »

أخرجت روزمارى دفتر شيكاتها ، وغنى عن القول أنه لا قيمة للشيكات فى هذه الحال . ففتحت درجاً وأخذت خمسة جنيهات ونظرت إليها وردت منها اثنين ثم رجعت إلى غرفة نومها ممسكة بالثلاثة الباقية فى يدها .

وبعد نصف ساعة كان فيليب لا يزال فى المكتبة لما دخلت روزمارى وهى تقول وقد استندت إلى الباب ثانية ونظرت إليه بتفرسها الدهش المصطنع : « إن الآنسة سميث لن تتناول طعام العشاء معنا هذا المساء »

فوضع فيليب الجريدة جانباً وقال « آه ! ما الذى حدث ؟ موعد سابق ؟ »

فجاءت روزمارى وجلست على ركبتيه وقالت « أصرت على الذهاب فأعطيتها منحة مالية . لم أستطع أن أبقيها برغم إرادتها » ثم أضافت بلين « أ كنت أستطيع أن أفعل »

وكانت روزمارى قد سوت شعرها تواً وكحلت عينيها قليلاً وتحلت بجواهرها فبدت رائعة الجمال عندما رفعت يديها ولمست خدود فيليب وقالت « أتحبنى ؟ »

فأعجبته نغمتها الحلوة ولكن أزعجه صوتها الأجش فقال « أحبك حباً عنيفاً » وضمها إلى صدره « قبلينى يا روزمارى »

ثم سادت جو الحجرة فترة سكون قطعتها روزمارى بصوت حالم « رأيت علبة صغيرة فاتنة اليوم ثمنها ٢٨ جنيهاً أأستطيع شراءها ؟ »

فأجابها فيليب « تستطيعين أيتها الصغيرة المبذرة »

ولكن لم يكن ذلك ما أرادت أن تقوله روزمارى فى الحقيقة فإنها همست فى أذن زوجها وضمت رأسه إلى صدرها وقالت « هل أنا جميلة يا فيليب ؟ »

بولس عبد الملك

معهد الصحافة بالجامعة الأمريكية